
في الزوايا خبايا

سلام الراسي





بيروت . لبنان

الطبعة السابعة

٢٠٠٦



٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١)
E-mail: Naufalgroup @ terra. net . lb

الإهـداء والمقـدّمة

أهدي كتابي هذا إلى قرائي ، الذين عاشوا معي في أجواء كتابي الاول « لئلا تضيع » فصاروا من أصدقائي ، وليس بيني وبينهم مقدمات ، فأبوابي مفتوحة على الطريق ، وكل ما عندي هو من حواضر البيت :

أحاديث وقصص وأخبار منسيّة

وطرائف وأمثال شعبية

وأحداث ومواقف وأساطير لبنانية

جمعتها عن ألسنة الناس في كتابي هذا ، الذي يدل اسمه على مضمونه :

« في الزوايا خبايا »

وهو من حيث المحتوى والاسلوب والانتماء الفكري يشكل جزءاً متمماً لكتاب : « لئلا تضيع » .

وبعد ، فهذا بعض مما في جعبتي انشره الان ، واحتفظ بما تبقى عندي من قصص وأخبار تتناول أسماء بعض الأشخاص والقرى والمؤسسات والشعائر والاحزاب ، لئلا يعتبر نشرها الان اساءة إلى احد .

قيل لعبد الله بن المقفع : « من أدّبك ؟ » . قال : « أدبت نفسي ، فان رأيت من غيري حسناً أتيته ، وان رأيت قبحاً أبيته » .

سلام الراسي

القسم الأول

ثرثرات

حرية الثرثرة

يُنسب إلى المندوب السامي الفرنسي الجنرال سرّايل قوله : « يستطيع الحاكم في لبنان أن يفعل ما يشاء شرط ان يؤمّن للبنانيين حرية الثرثرة »

مفتاح القبر ومفتاح السماء

يُنسب إلى مفكر لبناني راحل قوله :"رجال الاكليروس في بلادنا ، بيدهم مفتاح السماء ومفتاح القبر . فاذا كنت قد قررت أن تستغني عن السماء ، فهل بامكانك ان تستغني عن الدخول إلى القبر ؟ »

وَعِنْدَما كنتُ أغادرُ القريةَ كانَتْ دُيوكها تصِيح

ـ « أما الرفيق سلام الراسي فقد لاحظنا انه يتكلم بأسلوب قروي اصيل ، ويلفظ « القاف » مفخمة مثل اقحاح الدروز ، لذلك كلفناه بالعمل الحزبي في الاوساط القروية ، ولا سيما بين الدروز ، وصار اسمه الحزبي من الان وصاعدا « الشيخ بو علي » .

وعندما أنهى رئيس الحزب كلمته هذه وقفت وشكرته على حسن ظنه بي ، وعاهدته ان أكون في مستوى هذا الاسم العظيم ، وانطلقت مبشراً بالمذهب الجديد من قرية إلى قرية بجد واخلاص .

وبناء على موعد محدد ، في احدى الليالي ، مع أبناء احدى قرى الجنوب ، عُقد اجتماع حافل برجال القرية ، جئتهم باسطاً اليهم أسرار الشيوعية ومحاسنها . وقبل ان يستقر بي المقام « تنطّح » للكلام واحد من الحاضرين الكرام ، قال :

ـ الشيوعية يا اخوان ، « لا بد ولا غنى » مثل أمر الله ، ان صاح الديك بيطلع الضو ، وان ما صاح الديك بيطلع الضو ،

على كل حال بيطلع الضو . الفهيم عقلو دليلو ، والغشيم مثل ما قال المثل : « ماشي غافي مثل زبون العوافي » .

فتنحنح احد الحاضرين وأزاح بأصابعه بضع شعرات من شاربيه كانت تتدلى فوق فمه وقال :

— « مثل الناس ولا باس ، لكنْ بعدها مش دايرتلي ، يا بو نعمان كيف بدها تكون الحكايه » ؟

فالتفت الذي اسمه بو نعمان واستوى في مجلسه وراح يشرح له « كيف بدها تكون الحكايه » ، قال :

— جِب عجرم فيك تعبطو ؟ طبعاً لأ ! بتجيب المقص وهذي شوكه بتقصها وهذي شوكه بتقصها وهذي شوكه بتقصّها ، بتقص كل شوكات جب العجرم بتصير فيك تعبطو !

فهز الرجل رأسه بالايجاب ، لان « الحكاية دارتلو » وفهم كيف يكون بامكانه ان يعبط جب العجرم ، ودارت كذلك لأكثر الحاضرين ، ما عداي طبعاً ، فهزوا رؤوسهم بالموافقة ، وهززت رأسي اعجاباً ببراعة السؤال وبلاغة الجواب ، وقلت بنفسي ، لا بأس فلأبدأ كلامي ، الليلة ، عن الاشواك الموجودة في جسم المجتمع البشري والتي يجب قطعها من أجل تحقيق الشيوعية ، الا ان رجلاً من الحاضرين « عورض » وقال :

— هَوّنها بتهون ، لكن عالوعد يا كمون . الثعلب يا اخوان ، بحق نفسو ، افهم من الاسد ، لذلك بيعمل لمغارتو بابين ، اذا انحشر من باب بيطلع من باب ، وكل عمرا الدنيا هيك ، ما بتسوى الا ببابين ...

فقوطب عليه رجل آخر وكأنه أراد ان يقطع عليه طريق « شولحة » الكلام بدون نظام فقال :

— معلومك يا بو اسعد ان الناس « فئتين » : فئة كلاب الفَيْ وفئة كلاب الشمس . ولا خفاك الامر ان فئة كلاب الفي مثل « كستوره » كلبة المير توفيق ، بتنام عالتخت وبتتروق حليب وبتتغدى لحم ، من شان شو « كستوره » تتعب بالها وتنبّح ، ما زال لقمتها بْتْوصل لخدمتها على بارد المستريح ؟ . بس فئة كلاب الشمس متل « دَهموش » كلب بيت عمي بو خطار بيظل طول الليل يهوش حول البيت حتّى يفطنلو عمي بو خطار ويرميلو لقمه . دهموش بدو ينبّح ، وأنا بدي نبح وانت بدك تنبح ، وحضرة الافندي بدو ينبح ، حتّى تفطن الحكومة لحقوقنا ، هَيك ولاّ لأ يا افندي ؟

فبلعت ريقي وقلت : « هيك وستين هيك » . وطمأنت نفسي ان الاهانة التي لحقتني انما كانت من أجل مجد الشيوعية ، لان تقسيم البشر إلى طبقتين هو من صلب العقيدة الماركسية ، وقلت ، فليكن كلامي اذن ، اولاً ، عن هاتين الطبقتين ، وتريثت قليلاً لابحث عن كلمة حق أقولها بكلب الشمس

دهموش ، فانتزع المبادرة مني أحد الحاضرين وقال :

ـ أحسنت يا شيخ بو مسعود ، صحيح ان الناس فئتين ، بَس فئه منهم متل حمير النَوَر مقصّره ، لا بتعنفص ولا بتشنهق ، معها جوع عتيق هادد عزايمها ، لكن الفئه الثانيه متل هالمغضوب على بدنو ، حمار خالي امين اذا شم ريحة الشعير بيبطر ، ومبارح بس بحبحلو الشعيرات شوي سفقو لبطه فغشلو صابونة ركبتو . .

وأخذ الحاضرون عندئذٍ يضحكون ويعلقون على كلب عم الاول وحمار خال الثاني ، فيما كنت أحاول جمع شتات أفكاري بعد معركة النبيح واللبيط ، لابدأ كلامي بكل تأكيد ، واذا برجل اختيار غارت عيناه وارتخى حنكاه يسبقني إلى الكلام ، قال :

ـ بأيام شبابي كان بضيعتنا سكاف يشد لنا مداسات على قوالب ضيقه ، بَرِيَتْ من كثرة الاستعمال ، وكل ما تذمرو أهل الضيعه يقول : « زغّروا اجريكم انا ما بقدر كبّر قوالبي » . بالتالي بطّلوا أهل الضيعه يلبسوا مداسات . هذي هي المشكله يا أفندي : «مداسات ضيقه واجرين كبيره ، وفهمك كفايه » .

فهتفت قائلاً : « ولماذا لم تثوروا يومئذٍ ، ضد نظام المداسات الضيقة » ؟ . لكن الرجل لم يجب بشيء ، انه لم يسمع كلامي ، كان الرجل أطرش ، يبدي ولا يعيد ،

وفطنت ان الطَرَش هو ضرب من ضروب السخاء ، لان الاطرش يعطي ولا يأخذ ، وبسبب فطانتي هذه عزّيت نفسي عندئذٍ ، بان جهاز التفكير في رأسي ، لم يكن قد تعطل حتّى تلك الساعة . واذا برجل آخر يتناولني بسؤال جديد :

— « بتعرف يا بو ؟ ... » واستدرك وقال : « ابو شو من غير شر ؟ » قلت : « محسوبك بو علي » . قال : « محسوب الاوادم ، عاشت الاسماء ، بتعرف يا شيخ بو علي مين اخترع الشيوعية ؟ » .

ولم يترك لي مجالا للاجابة ، بل افترض بثاقب رأيه انني لا أعرف ، وقال : « انه الزير ابو ليلى المهلهل » ، ومضى يقول وعمر السامعين يطول :

« يقول الزير ابو ليلى المهلهل　　وقلب الزير قاسي ما يلينا
اذا لان الحديد ما لان قلـــبي　　وقلبي من حديد القاسيينا »

وطفق الرجل يعد عن « ظهر قلبه » ، ويكر ويفر ، ويرفع صوته حينا ، ثم يخفضه وهو يتلو معلقة الزير المشهورة ، والحاضرون يجارونه تارة بترديد بعض القوافي وتارة بتفسير بعض المعاني ، وانا أجاريهم تارة بهز راسي وتارة بتصعيد أنفاسي ، لاني لم أكن حتى ذلك الوقت ، قد خسرت ثقتي بنفسي ، وكنت مزمعاً على الصمود والكلام عندما تنتهي الياذة سيدنا الزير ابو ليلى عليه السلام ، فأفهم كيف تم

اختراع الشيوعية بواسطة هذا الفطحل من فطاحلنا العظام ، لو لم يتحرك رجل جهامي عتعيت كان يتقعقر إلى جانبي ، ويقطع أنفاس معلقة الزير ويقول :

— « على سيرة الكلاب ... » ...

ومع اننا كنا قد انتقلنا من سيرة الكلاب إلى سيرة الحمير ، وتجاوزنا ثلاثة أرباع قصة الزير ، بعناء كبير ، فان جاري هذا كان عقله ما زال داقراً عند الكلاب ، فلم يرافقنا في مسيرة الحمير وملحمة الزير إلى جلجثة التعثير . وحدث انه كان من الذين يتكلمون بألسنتهم وأيديهم ، فكلما قال عبارة أكّدها بضربة على فخذي وأتبعها بلكشة في صدري ، وكان لعابه يتطاير من فمه فيقع رذاذاً على وجهي كأنه زيت مرشوش على صحن فتّوش ، قال :

— « على سيرة الكلاب ، عندي كلب بمعزّة ولد من ولادي ، مرت دورية الدرك على الدرب . دخلك شو هي وظيفة الكلب ؟ ، حضرتك مثلاً ، شو هي وظيفتك ؟ » . قلت:« محرر جريدة » . قال : « صحيح ، كل واحد الو وظيفه ، انا وظيفتي أرعى معزى ، انت وظيفتك تكتب بالجريدة ، الكلب وظيفتو ينبح ، شال الدركي بارودتو وناولو طلق قتلو ، بيجوز هذا بقانون الشيوعية ؟ » .

فانبرى له أحد الحاضرين قائلا ان الكلب كان يجب

قتله ، لانه كان يعوي بالمقلوب وربما جلب الشؤم على القرية .
وصاح آخر :

— « هذا صحيح ! بعدما ماتت بقرتنا « الحجبا » ، السبت الماضي ، فطنت مرتي وقالت : « شفت يا رجّال ، مبارح كلب بيت بو يوسف كان يعوي بالمقلوب » . قلتلها : « صحيح انك حرمه بلا عقل ، لو حكيتي كنا قتلنا الكلب ، بالكلب ولا بالبقره » .

فهب صاحب الكلب إلى الدفاع عن سيرة كلبه الذي لم يكن يضمر سوءاً لاحد ، ونسب نباحه بالمقلوب إلى « صيبة العين » لانه كان أضرى كلب في القرية . واحتدم الجدال ، والقيل والقال ، من هنا سؤال ومن هنا مقال ، واخوكم الاسد الرئبال « ابو علي » منشغل البال مقطع الاوصال ، لم أشق رجلي بجواب ولم أبلّ ريقي بخطاب ، فقلت ، اذا كان الطرش فضيلة فالخرس هو لا شك ، رأس الفضائل . وفطنت أخيراً إلى ان عقلي ، انا أيضاً ، كان ما زال داقراً عند مثل الديك : « ان صاح الديك بيطلع الضو ، وان ما صاح الديك بيطلع الضو ، على كل حال بيطلع الضو » ، فخشيت ان يطلع عليّ الضو دون ان تطلع من فميَ كلمة واحدة عن الشيوعية التي جئت مبشراً باسمها وداعيا إلى ملكوتها . على ما كنت اعتقد في تلك الليلة .

ونهضت مودعاً ، ونهض من كان حولي شاكرين

تشريفي ، وقالوا : « انها ليلة رائعة قضيناها معك فتعلمنا واستفدنا كثيراً ، وطلبوا ان أعود اليهم مرة اخرى ليستزيدوا مني علما ومعرفة ، فقلت : « ولكن انتم لا ينقصكم شيء اما أنا فقد كانت تنقصني عدة أشياء تعلمتها منكم في هذه الليلة » .

وعندما كنت أغادر القرية كانت ديوكها تصيح .

قِصّة كِلاب الفَيّ وكِلاب الشمس

هكذا حققت هذه القصة الشعبية نجاحاً ملحوظاً وكان أبلغ ما فيها ، تقسيم البشر إلى فئتين : فئة كلاب الفَيْ وفئة كلاب الشمس ، واشتهرت بهذا الاسم في بعض الاوساط الادبية ، فقبل عدد من الاصدقاء ان ينتسبوا مختارين إلى فئة كلاب الشمس ، واقترح أحد الظرفاء تأليف حزب سياسي باسم « حزب كلاب الشمس » ، يكون لي شرف رئاسته .

وحدث ان انتميت إلى جهاز مصلحة التعمير ، في عهد منشئها اميل البستاني ، وكان عليّ ان أرافقه أحيانا إلى المناطق المتضررة بالزلزال . وكان البستاني لكثرة مشاغله ، يغتنم مثل هذه المناسبة لينام في السيارة ، ويطلب من مرافقيه أن يتحدثوا في أثناء نومه باستمرار ، فاذا انقطعوا عن الكلام قام ولامهم على ذلك . لذلك كان عبء الحديث يقع على عاتقي ، في أكثر

الاحيان ، لان رفاقي كانوا دائماً « يتركركون عليّ » .

وجرّني الحديث ، في احدى هذه الرحلات إلى قصة كلاب الشمس وكلاب الفي ، وكنت أظن البستاني غافياً ، وعندما انتهت القصة تحرك وقال : « وسيكون اسمك الرسمي ، من الان وصاعداً « الشيخ بو علي » ، وهكذا كان .

* * *

الدنيا قرضة ووفاء

قرية لبعا في منطقة جزين تهدّمت بالزلزال سنة ١٩٥٦ ، وكنت من الذين اشتركوا في اعادة بنائها . وعندما اوشك العمل فيها ان ينتهي ، وفاني حقي احد ابنائها الشاعر الياس ابراهيم بردة الزجل التالية :

يا « بو علي » لبعا عاإسمك ثانيـه
ما منحتمل عنّا فراقك ثانيـه

ومن خوفنا تروح صرنا نبتهـل
تا يرجع الزلزال مرّه ثانيـه

بدنا نطوّل بالنا

كثيرون من المتعاملين معي الآن، لا يعرفون اسمي الحقيقي لان « الشيخ بو علي » طغى على « سلام الراسي » ، وكاد يحجبه عن السنة الناس ، ولاءم هذا الاسم الجديد شخصيتي فأكسبني بعض الوقار .

الا انه كذلك ، قرّبني كثيراً من ابناء الشعب فصرت موظفاً لا كسائر الموظفين ، موظفاً شعبياً ، « همشري » « كلب شمس » — ولا باس — وصاروا يقبلون اليَّ وعليَّ بأمل وغبطة ويتحدثون معي وامامي كأني واحد منهم .

— التقى عندي يوماً ، شاب وشيخ ، قال الشاب : « تهدّمت بيوتنا بالزلزال وتم الكشف عليها مراراً ، وجرى تقدير الاضرار ، وتقرر دفع التعويضات ، وصار لنا اكثر من سنتين بالمراجعات ، ولم يدفعوا لنا حتى الآن » .

قال الشيخ : « يا ابني ! الحكومه معتاده تقبض مش معتاده تدفع ، من هون لحتى تاخذ ايدها عالدفع بدنا نطوّل بالنا »

واستدرك الشيخ قائلا : « الشيخ بو علي منا وفينا »



«حَضرة أخونا الشيخ بُوعَلي»

في عهد الامير بشير الشهابي كانت للمكاتبة والمخاطبة أصول ديوانية تراعى بكل دقة . فتكون مكاتبات الامير ، غالباً ، معنونة بـِ « إلى فلان » فاذا أراد الامير أن يشمل المخاطَب بالتفاتة كريمة قال :« حضرة فلان » . ولكن اذا كتب إلى أحد الناس « حضرة اخونا » ، فان المخاطَب يصير عندئذٍ شيخاً ، ولذلك كثُر التشيخ في تلك الحقبة .

ولم يكن من اللائق أن يقال :« حضرة اخانا او حضرة اخينا » — ومن كتب هكذا فقد أهان المكتوب اليه — بل « حضرة اخونا » ولو غضب الشيخ ناصيف اليازجي ، لان التقاليد تكون أحيانا اقوى من الاصول .

ولم يكن الامير بشير يكنّي احداً ، ما عدا الشيخ بشير جنبلاط ، الذي كان الامير يكنيه « بأبي علي » ، فيكتب اليه « حضرة أخونا الشيخ بو علي بشير » . لان الشيخ بو علي بشير جنبلاط — عمود السما — كان أكبر زعماء ذلك الزمان .

ومن ذلك الوقت صارت هذه التكنية ترمز إلى مناعة جانب المكنى بها ، والى نفوذ كلمته .

الا ان البعض يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيزعم ان التكني « بأبي علي » يعود إلى عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، مؤسس مذهب التوحيد ، الذي كان يتكنى بهذه التكنية — وهو لا شك أعظم من تكنى بها — ومن ذلك الزمان اكتسبت هذه التكنية معنى المهابة والسلطان .

* * *

لبنان طوائف ووظائف

عندما تولى رستم باشا متصرفية جبل لبنان ، اقام مدة غير طويلة يستطلع احوال البلاد ويستكشف اخبار رجالها ، ثم ابدل بعض كبار الموظفين ، غير مقيد باراء رؤساء الاديان . فاستاء هؤلاء من ذلك لان نظام الجبل مؤسس على مراعاة اختلاف المذاهب . والوظائف الكبيرة فيه مقسومة بين الطوائف بحسب عددها ومكانتها حتى كأن كل موظف نائب عن أبناء طائفته في دوائر الحكومة لا خادم للبلاد كلها .

المقتطف — الجزء الثاني — السنة العشرون

قِصَّــة الكوع

مثلما كان في قديم الزمان ، هكذا ما هو كائن الان .

كان هنالك كوع ضيّق خطر كثرت عليه حوادث السيارات ، فارتفعت اصوات الاحتجاج ، وتوالت وفود المواطنين على أعتاب المسؤولين ، وبعد كل احتجاج كان يصدر بيان عن مدى اهتمام أصحاب الشان ، فتتولى درس الموضوع لجنة ، او عدة لجان .

وفي ذات صباح شوهدت عدة شاحنات تفرغ حمولتها من مواد البناء قرب الكوع ، وبدأ العمل . ثم جاء أحد كبار المسؤولين في موكب عظيم ووضع الحجر الأساسي . ورفعت عندئذ ، في المكان ، يافطة كتب عليها : « هنا يبنى المستشفى الوطنيّ لمعالجة ضحايا الكوع » ، وبقي الكوع على حاله .

ونامت قضية الكوع بعض الوقت ، ثم استيقظت على قرقعة الاصطدامات وشتائم المهشمين والمتعرقلين ، وكثر ، بالتالي ، عدد المطالبين بتوسيع الكوع وتقويمه ، فتقرر اتخاذ اجراءات جديدة ، وشوهد بعض الخبراء والمهندسين يجوبون المكان ومعهم خرائط وملفات ، وبوشر أخيراً ببناء كاراج

فني حديث لإصلاح السيارات المعطوبة بسرعة . وبقي الكوع على حاله .

وبسبب عرقلة السير على الكوع في أغلب الاوقات ، واضطرار المسافرين إلى التوقف عنده ، احيانا ، عدة ساعات ، خطر لرجل من احدى القرى المجاورة ان يبني قرب الكوع حانوتاً يبيع فيه المرطبات ، وحذا حذوه رجل آخر فبنى مطعماً صغيراً ، وأقدم جماعة ، بعد ذلك ، على انشاء محطة بنزين ، وشرع آخرون يخططون لبناء فندق ، وجاءت احدى شركات التأمين على الحياة وابتنت لها مكتباً متواضعاً . وبقي الكوع على حاله .

ومما زاد الطين بلّة ان طبقة أبناء الرصيف في المدينة تنسمت أخبار الكوع ، فهرع اليه باعة العلكة وأوراق اليانصيب وماسحو زجاج السيارات ولاعبو الكشاتبين ، بالاضافة إلى رهط من الشحاذين والمعتوهين . ثم قدم رجل غريب وأفرغ شاحنة بطيخ على قارعة الكوع وأخذ ينادي :« عالسكين يا بطيخ » . وتبعه آخرون بعربات الخضار والأثمار ، وما لبثت البسطات ان احتلت قسماً من عرض الكوع الذي استحال إلى ساحة مشاحنات ومشاجرات دائمة بين السائقين والمسافرين وعباد الله المسترزقين . وبقي الكوع على حاله .

وراجت بعد ذلك اشاعات ، وتناقلت الألسن أنباء مؤامرة يدبرها أبناء القرى المجاورة الذين قرروا مهاجمة الكوع

وتقويمه بأنفسهم – قيل ان هذه الاشاعة لفقها أصحاب مصالح الكوع ، الذين صاروا بحكم ارتزاقهم طبقة مميزة يهمها ان تحافظ على الوضع الراهن – فبادر عدد من رجال الامن إلى حماية الكوع ، ريثما تم تشييد مخفر لائق إلى جانبه ، ثم دعت الحاجة إلى بناء سجن في الجهة الخلفية من المخفر لتوقيف المشبوهين . وبقي الكوع على حاله .

واطمأن أصحاب مصالح الكوع على حاضرهم فشيدوا منازل لهم حول المخفر ، ثم بُني في المكان مركز بريد وبرق وهاتف ، وانشئت عدة دكاكين هنا وهنالك ، وشوهد سماسرة بيع الأراضي يطوفون ويتحدثون بالارقام ، وارتفعت يافطة عند آخر الكوع عليها كتابة بخط عريض تدعو المؤمنين إلى التبرع من مال الله لبناء بيت لله في ذلك المكان . وهكذا نشأ مجتمع جديد حول الكوع ما لبث أبناؤه أن تنادوا وتظافروا على حماية التراث الوطني ، لان ما تركه الاباء وقف على الابناء ، خليق بهم ان يحافظوا عليه ، حتى آخر نسمة من حياتهم . وبقي الكوع على حاله .

مقابل ذلك زاد عدد المطالبين بتقويم الكوع ، وتطورت نظرتهم إلى الموضوع . صار الكوع قضية ، وصار شعار الجيل الجديد تقويم جميع الاكواع .

ومثلما كان في قديم الزمان ، هكذا ما هو كائن الان .

« اِللّي مَاعِنْدُو كْبير يِشْتري كْبير »

عاش في قديم الزمان ملك عظيم ، ومثل أكثر ملوك القصص كانت أحكامه اعتباطية ، الا ان حماقات الملوك ، في ذلك الزمان ، كانت تتم بارادة الله ــ هكذا كانوا يقولون ــ وكلما تجاوزت حماقة احدهم حدود المألوف اعتبرنا ذلك تمييزاً له من الله عن سواه ، تماماً مثل بعض الاقوال والكتابات المبهمة كلما اختبلت حسبناها من ضروب البلاغة .

والمعروف ان بعض ملوك الزمان كانوا يصرفون الرجال من الخدمة في الخامسة والستين ، وأحياناً في الثانية والستين . يقال ان الحكمة من هذا التدبير هي ان الرجل في هذه السن يوشك ان يبلغ من العمر أرذله ، فتصرفه الدولة من خدمتها ليتفرغ ما أمكن لخدمة زوجته .

لكن ملك قصتنا كان أحكم من جميع ملوك الزمان ، فعرف بثاقب رأيه ان الرجل في هذا العمر ، يصبح مثل الجندي بدون خرطوش ، فتقول له زوجته : « عرفناك بالنهار وعرفناك بالليل » ، ومن لا يصلح لخدمة الدولة لا يصلح لخدمة

زوجته ، فاذا فقد الرجل ثقة حكومته ثم ثقة زوجته به كان موته أفضل من حياته ، وهذا ما عناه عنتر بقوله :

« موت الفتى في عزّه خير له   من ان يعيش مجلببا بتذللِ »

لذلك ، وحفظاً على كرامة الرجال من شماتة النساء قرر ملك القصة اعدام كل رجل يبلغ الخامسة والستين ، وهكذا كان .

وبعد وقت قصير هبت على البلاد عاصفة غريبة عاتية ، فانحبس المطر ويبس الزرع وجف الضرع ، فلجأ الملك إلى تدبير سريع : أمر رجاله ان يحصدوا العاصفة . وحصاد العاصفة عند بعض ملوك الزمان تدبير معروف ، لذلك قيل : « من يزرع الريح يحصد العاصفة » ، لان بعض ملوك الزمان كانوا يحصدون ما زرعوه في أغلب الاحيان .

وهب أبناء ذلك الزمان ، طبعاً ، إلى مناجلهم يحصدون العاصفة بلا هوادة ، يومياً من « الفجر إلى النجر » ، دون ان يترك لهم مجال للراحة . فكان عملهم مرهقاً وميئوساً منه وبدون جدوى .

ولاحظ الملك يوماً ، وهو يتفقد حصاد العاصفة ، ان أحد الحصادين كان جالساً يختلس الراحة ومنجله إلى جانبه ، وعندما اقترب منه قام هذا بحركة غريبة بكلتا يديه ، فانتهره ، فقال : « المعذرة يا مولاي ! جعت ففركت سنبلة مما حصدته

وأكلت حبوبها ، اذ يحق للعامل ان يأكل مما جناه » .

قال الملك : « ولكنك لم تأكل الا الهواء » .

أجاب : « ومن يحصد العاصفة لا يأكل الا الهواء » .

فأطرق الملك برهة ثم قال : « هذه حكمة من حكم الشيوخ ، ولا يمكن ان تصدر عن شاب مثلك ، فقل لي من علّمك ان تفعل ذلك ، والا قتلتك ؟ »

فخاف الشاب وقال : « عفواً يا سيدي ، عندما أمرتم بقتل كل كبير في المملكة ، أشفقت على والدي الشيخ فخبأته في مكان حصين الجأ اليه كلما احتجت إلى نصائحه ، وهو الذي علمني ان أفعل ذلك » .

فأنفرجت أسارير الملك وقال : « صحيح ! اللي ما عندو كبير يشتري كبير » ، فجرى كلامه مثلاً .

هذا ويقول بعض الرواة ان الاصح ان يقال : « اللي ما عندو كبير يستشير كبير » . والله أعلم .

«الضّبع ، بالنهار وَاوي وبالليْل سَبع »

الضبع في لغتنا العربية كلمة مؤنثة . نقول:« جاءت الضبع » لا :« جاء الضبع » ، خلافاً لاسماء : الاسد والنمر والذئب والنسر والصقر ، حتى ابن آوى وابن عرس ، أكثر هذه الاسماء مذكرة . فأجدادنا العرب الاولون كانوا يطلقون أسماء مؤنثة على كل ما هو مكروه ومحتقر عندهم ، لذلك وضعوا الضبع في منزلة الحية والام أربع وأربعين .

وفي حين سمّوا الاسد ابو الحارث ، والذئب ابو سرحان ، والغراب ابو حاتم ، والثعلب ابو الحصين ، والديك ابو يقظان ، والحمار ابو صابر ، حتى الثعبان ذكر الحية سمّوه ابو عثمان ، فقد ميّزوا النمر وسموه « الشيخ أبو فارس النمر » ، الا انهم « تناشفوا » مع الضبع فأغدقوا عليه الأسماء المؤنثة مثل : ام عامر وام قشعم وام عمرو وام رحال وغير ذلك .

ويروى ان احدى الضباع هربت من الصياد واختبأت عند احد الشعراء الذي عدّها دخيلة في بيته فأجارها ولم يسمح

بقتلها ، وعندما ذهب الصياد دخل الشاعر إلى بيته فوجد ان الضبع قتلت أحد أولاده ، فأنشد يقول :

« ومن يصنع المعروف مع غير أهله
يلاقِ الذي لاقى مجير ام عامر »

ونحن اللبنانيين نكون أحيانا من المكابرين ، « عنزه ولو طارت » هذا مثلنا المفضل . فلبنان في نظرنا اسم مذكر ولو انكرت عليه ذلك بعض شقيقاته ، والضبع عندنا ، كذلك ، اسم مذكر ولو غضب أصحاب « تاج العروس » و « مجمع البحرين » و « الساق على الساق في ما هو الفارياق » . ونحن نطلق على الضبع لقباً مذكراً هو « ابو فطايس » ، لان الضبع ليس من السباع القانصة ، بل يعيش على الجيف المنتنة .

يتحدث شهاب الدين الابشهي في كتاب « المستطرف من كل فن مستظرف » عن الضبع فيقول انه ينبش القبور ويأكل جثث الموتى ، وله خواص : « من شرب دمه ذهب وسواسه . ومن علق عليه عينه احبه الناس ، واذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره » .

ويقول العلامة أبو بكر الخوارزمي في كتابه « مفيد العلوم ومبيد الهموم » ان الضبع يكون سنة ذكراً وسنة انثى ، ويذكر ان الضبع اذا مرض يأكل نجاسة الكلب فيبرأ .

ان رآه الكلب في النهار هاش ، وان رآه في الليل غرش

ولحم الضبع حامض ، كما يقال ، ففي بعض المناطق اللبنانية ، وفي بعض أنحاء سوريا وفلسطين يصطادون الضبع ويأكلونه ، وقد عرفت شخصياً من يقول انه أكل لحم الضبع ، ولكن فاتني أن أسأله عن خواصه ، لعل من خواص لحم الضبع انه يشفي من مرض كثرة الاحساس بغلاظة الناس، وقلة الاحتمال على سماع أكثر الخطب والمواعظ والاقوال .

وللضبع معنى اسطوري عند قدامى اللبنانيين من القرويين ، فهو أقرب إلى الغول مما هو إلى الذئب مثلاً ، ويقع حديث الضباع أحيانا في باب قصص الجن في سهرات الشتاء . وفي كل قرية ، حتى في راس بيروت والمزرعة توجد قصة ضبع ، وأحيانا نفس القصة تروى كأنها احدى الوقائع المحلية .

* * *

يقول الحاج وهبي : « الضبع وقش ليل » — والحاج وهبي صياد عتيق معروف في منطقة الشوف ومتمرس بطبائع الوقوش — أي الوحوش بلغة بعض القرويين — ويضيف الحاج وهبي قائلا ان الضبع قلما يظهر نهاراً . ان رآه الكلب في النهار هاش وان رآه في الليل « غرش » ، لان الضبع في النهار جبان قليل الهيبة والاعتبار ولكنه في الليل وقش كاسر يحسب له حساب ، لذلك قال المثل : « مثل الضبع ، بالنهار واوي وبالليل سبع » .

وتقول ام شحاده جبران ان امها « بدرا » كانت لها مقدرة على ربط لسان الوقش ، وعملية ربط لسان الوقش هذه معروفة كان يتولاها اناس من أصحاب الشفاعات والكرامات ، فاذا فقد أحد القرويين عجله مثلا ، ولم يجده حتى المساء ، لجأ إلى أحد هؤلاء ليربط له لسان الوقش ، فيضمن بذلك سلامته تلك الليلة .

وتضيف ام شحاده ، ان امها بدرا كانت في هذه الحال ، تأخذ مقصاً وتمسحه بزيت زيتون وتسمّي عليه ، اي تذكر بعض أسماء الله الحسنى ، ثم تربط المقص بخيط صوف وتقول التعويذة التالية : « بجاه سيدنا سليمان وملوك الانس والجان ، ينربط كل لسان ، من سَوّ ومن عَوّ، من إسّا لطلوع الضو» .

وهكذا ، تنربط ألسنة السَو أي السوء والسنة العَو اي الوحوش حتى الصباح ، فلا تقدر ان تفتح أفواهها لافتراس العجل المفقود ، طوال ذلك الليل ، فاذا أقبل الصباح ، فتحت « بدرا » المقص فتنفتح أفواه الوحوش .

مرةً نسيت بدرا مقصها مربوطاً فماتت جوعاً ثلاثة من الضباع وجدت جثثها حول القرية . ومنذ ذلك الوقت ابطل الله قدرة بدرا على ربط ألسنة الوقوش .

« ياكلها السبع ولا ياكلها الضبع »

ويقول الحاج داود نصور ان عين الضبع تشع في الليل

مثل سراج « زيت الحلو » ، فيها مغناطيس عجيب يسيطر بواسطته على ارادة الرجل فيحمله إلى مغارته وهناك يبدأ « بزكزكته » فيأخذ الرجل بالضحك . احدى هوايات الضبع : الزكزكة أي الدغدغة — فقد حمل الضبع إلى مغارته ولداً من قرية الحاج داود لحق به ذووه فأدركوه يكاد يموت من الضحك بين يدي الضبع — وبعد ان « يتنهنه » الرجل من الضحك يبدأ الضبع بالتهامه حياً . هذا دليل على قلة دين الضبع لان سائر الوحوش تقتل فرائسها ، من نحورها ، قبل مباشرة أكلها — تماماً كما يفعل الانسان عندما يذبح الشاة من نحرها قبل أكلها ، لذلك تعتبر أسوء النهايات نهاية رجل بين يدي الضبع ، ولذلك أيضا يقال في بعض الاحوال :« ياكلها السبع ولا ياكلها الضبع » .

* * *

ويقول أبو مرشد ، وهو شيخ أربت سنه على التسعين : « قصة الضبع عندي ، جربته بنفسي ، « اسأل مجرب ولا تسأل حكيم » . كنت عائداً من المطحنة ، الدنيا ليل والقمر تعبان . حرن الحمار قدامي ، وفجأة « قشعر » بدني ووقف شعر راسي ، قلت :« دنت » ... ثم سمعت « قرقعة » ، فعرفت أنها قرقعة مفاصل ضبع ، لان الضبع عندما يتحرك تسمع قرقعة عظامه من بعيد .

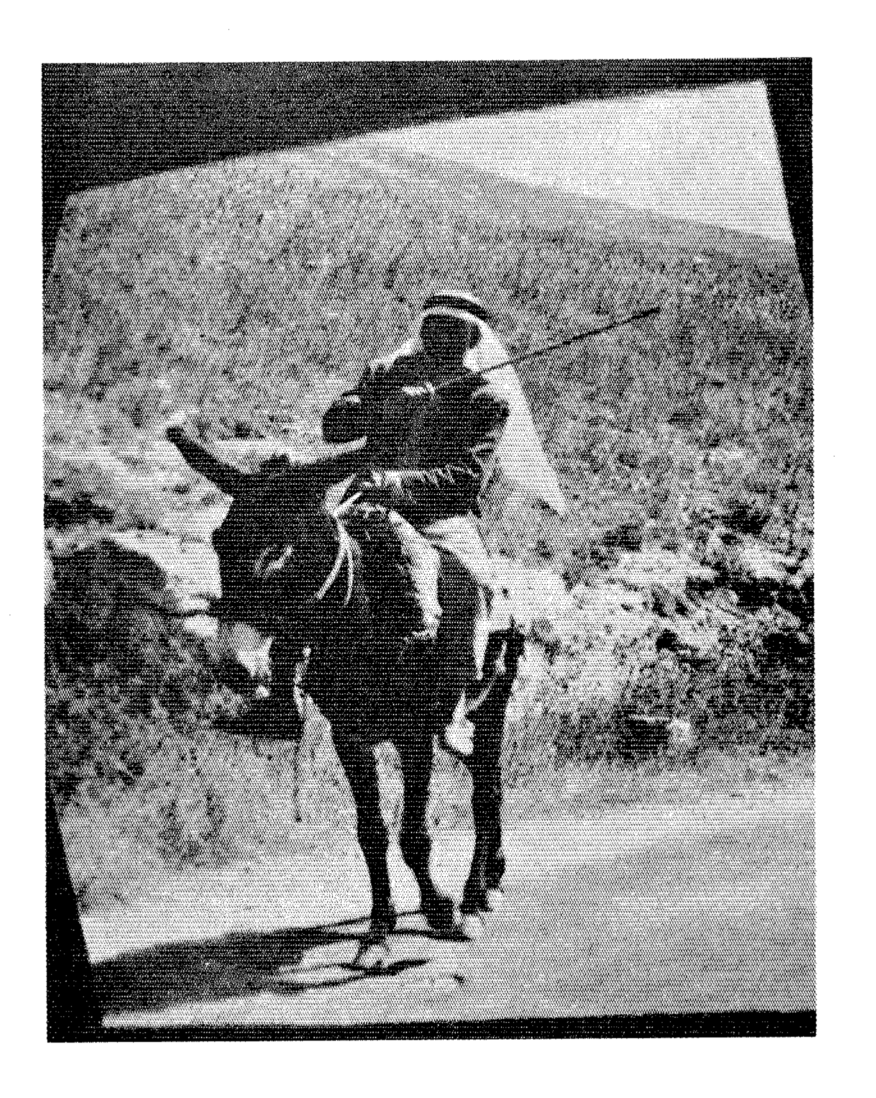
ثم رأيت « زوالي » — والزوالي شيء مثل الطيف يتحرك

في الظلام « بالكاد » يراه بصرك — فرسمت علامة الصليب على وجهي « ونهرت » الحمار فمشى ، فقلت:« عسى خير » .

ومشيت خلف الحمار مسافة شرب سيكاره او أقل ، فاذا بطراطيش سائل حامض لزج تتساقط على راسي ووجهي من ورائي . وكنت أعرف من قبل ان الضبع يبوّل على ذيله ويرش بوله بواسطة ذيله على الرجل . سر الضبع في بوله ، ان بوّل عليك راحت عليك . الضبع اضعف من الذئب والنمر والاسد،فكيف يتقي شرهم؟ قوّته في بوله وسلاحه في ذيله ».

ويتنهد ابو مرشد ، عندئذٍ ، ويقول : « تنذكر ما تنعاد ، ما عبق بول الضبع في « مناخيري » حتّى ضرب في دماغي . فقدت حالا ارادتي حتّى على رسم اشارة الصليب ، ووجدت نفسي ، بعدئذٍ ، راكبا على ظهر الضبع ، كأني على ظهر حماري . وكانت في يدي عصا سنديان وعلى جنبي خنجر ، ولكن عقلي لم يكن معي .

ومشى الضبع بي إلى مغارته ودخل ، ودخلت راكبا على ظهره ، فارتطم رأسي بباب المغارة ، فنفر الدم من جبيني . فصحوت . فقفزت . فعاجلت الضبع بضربة عصا على رأسه ما احتجت غيرها . وعندما رجعت إلى القرية وجدت الافكار فيها مشوشة ، لان الحمار وصل بالطحنة وحده . وعندما اخبرت عما حدث انتخى بعض الاخوان رحمة الله عليهم — فقد ماتوا جميعاً — وذهبوا معي إلى حيث أريتهم الضبع جثة هامدة على باب المغارة » .



« لولا الرَسَن والعصَا كان الحمار أوّل مَن عَصَى »

بعد وقوف ثلاث ساعات متواصلة أمام درج القائمقامية قرأ القارىء اخيراً اسمي وقال : « كاتب » . فجمدت مكاني إلى أن جاء رئيس القلم يبحث عني فاذا هو شاب عمره نصف عمري تقريباً ، علمت في ما بعد أنه معلم مدرسة في احدى القرى وان أباه من أزلام أحد أتباع أحد زعماء ذلك الزمان ... تشرفنا .

وتقدم منا رجل قروي وقال : « نحنا بالخدامه ، معنا فرس وحمار ، لا تتأخروا علينا ، الدنيا مسا والمشوار طويل ».. ومشى فتبعه رئيس القلم ومشيت أنا خلفهما متثاقلاً .

كان علينا ان نشرف على عملية الانتخاب في احدى القرى التي لم تكن حتى ذلك الوقت دخلت في عصر السيارة ، فأرسل الينا مختار القرية فرساً وحماراً ، هذا حق ، اذ لا يجوز ان تتساوى مقادير الرجال حتى على ظهور الدواب ، لذلك تعنطز

رئيس القلم على صهوة الفرس وتقوقع عبدكم الفقير على ظهر الحمار ، ومشينا .

كان بودي ، آنئذٍ ، ان أتحدث مع نفسي ، فأفترض ان لجنة الانتخاب كانت مؤلفة من ثلاثة موظفين ، بدلا من اثنين :

الاول : « ابن حكومة » ، ابوه من أزلام أحد أتباع أحد زعماء ذلك الزمان .

والثاني : « موظف حكومة » خاله قندلفت . . . . . .

والثالث : انا !

اذن ، لكان عليَّ الان ان أمشي على رجليَّ وراء من هما أرفع مني قدراً في نظر قارىء درج القائمقامية ، اذ ليس عند المختار مركوب أدنى مقاماً من الحمار ، فشكرت الله عندئذٍ ، وحمدت حكمة الحكومة لانها جعلت لجنة الانتخاب من موظَّفين اثنين فقط ، وبدا لي حينئذٍ ان كلمة « حكمة » لا بد ان تكون مشتقة من « حكومة » ، واللهّ أعلم .

ولاحظت ان قافلتنا الميمونة ، بالاضافة إلى من ذكرت ، كانت تضم كلباً جعارياً مبتور الذيل والاذنين ، يمشي متحفزاً ، تارة أمامنا وتارة وراءنا ، فشعرت بشيء من الطمأنينة وشكرت الله ثانية . وكان الكلب كلما مر بنبتة إلى جانب الطريق تنسم رائحتها ثم رفع فخذه ورش عليها قليلاً

من بوله . هذه حكمة من حكم الكلب . برائحة بوله يعرف طريق عودته ، « فيحفظ خط الرجعة » .

قلت ، كان بودي ان أتحدث مع نفسي ، فأسجل في ذاكرتي بعض مشاهداتي وانطباعاتي ، لو لم يكن مرافقي ، صاحب الحمار ، معه جوع مزمن إلى كثرة الكلام . قال وهو يمشي إلى جانبي وقد وضع يده على ردف الحمار :

– يرحم أمواتك ويرحم فرحان صفصوف ، كان يقول : « ان طال الطريق ، من قلّة الرفيق » ، وكان خالي خطار يقول : « سلّي رفيقك بيقصر طريقك ! ، اليوم يا افندي أنت رفيقي وأنا رفيقك ، سلّيني وبسليك ! »

وتابع الرجل كلامه ، دون أن يترك لي مجالاً لكي أسلّيه : بقصة ، بخبر ، بعبارة مجاملة ، بسؤال ، حتى بالموافقة على صحة كلامه ، قال :

– صار لي ثلاثين سنة بمرافقة الحمير ، محسوبك مكاري ، أنا معتاد على عشرة الحمير ، اذا ما كان معي رفيق بتحدث مع الحمار ، أحسن مزيه بالحمار أنو بيسمع وبيفهم وبيسكت .. بيعرف حدودو . بيحملك بس ما بيحمل عنك شقله بالحديث . صدقني ان الحمار ، منا وفينا ، ابن حلال ، مثلنا ، ما بيهتم للاصول ، اركب عليه وطَوطح اجريك . بس الفرس بنت حرام كل شي عندها عالأصول ، ركبها وأكلها وسياستها ، متل الست دلول ، كل شي عندها عالأصول .

ـ بأيام شبابي كنت « مقداف » عند أحد الزعماء ، أكلت نصيبي ، عشر سنين حبس ثمن طيش وقلّة سَيسره . الحكم رسن الرجال ، يا افندي ، والعدل ملح الأرض ، اللي تعلمتو بالحبس ما تعلمو غيري بالمدارس ، لو الحبس بيعطي شهادات كانت شهادتي قد الملحفه .

وتابع الرجل كلامه ، سرداً رتيب النبرات ، كما يتلو المؤمن احدى التلاوات ، فيعتمد على حسن النية ، لا على ترتيب الكلمات ، قال :

ـ الشيخ أسعد جندل ، بأيام شبابو ، كانت منافسو مِرّه . كان يقول لولا خوفي من ربي كنت بمشي على رقاب العباد . كانت دعسات حوافر حصانو تبري حجار الصوان . بالتالي الله هداه وكمّلو ، وبس ارتفع اتضع وصار يركب على حمار ويتصدر مجالس الاجاويد ، حدثنا مرة قال :

« شو قولكم باللي نزل عالوادي وشاف الاسد نايم وَطب ماسكو على اذنو ؟ » . قلنا : « ارجل خلق الله » ، قال : « ارجل منو اللي بيحكم على ارادتو ! » ـ كان الشيخ أسعد فكّاك مشاكل مدوّم يرضي الخالق . واذا انحشر الدق بيرضي ابليس : « بياخذ من الآدمي وبيعطي الحسيبس » . المهم يحل المشكل ، لان حل المشكل عداله وتأجيلو ندامه ، والظلم اهون من رخاوة الحكم ، والمثل يا افندي بيقول : «لولا الرسن والعصا كان الحمار اول من عصى » .

وأضاف الرجل قائلا : « جميع هذه الامثال تعلمناها مر الشيخ أسعد ، رحمة الله عليك يا شيخ أسعد » . وتابع الرجل كلامه قال :

— وبس خرجت من الحبس وَعَدت نفسي ما اتداخل بشي ما بيعنيني ، واستلمت الرسن والعصا . الوالد كان مكاري ما ورّثني غير الرسن والعصا ، والمثل بيقول : « الحمار اقل الدواب مُونه وأكثرها معُونه » . من وقتها صار كل حمار عندي بمعزة ولد من ولادي ، بناديه باسمو . ما تآخذني نسيت عرّفك على الحمار ، حضرتو « تعبان » . وهذاك الكلب — انت كبير القدر — اسمو « غضبان » ...

فقلت بنفسي ، تشرفنا ، لا بل زدنا شرفاً ، منذ تعرّفنا ، اولاً ، بقيدوم حملتنا راعي الحصان ، حتّى انتهينا الان بتعبان وغضبان ، وشكرت الله للمرة الثالثة ، على سلامة القافية ، بقدر الإمكان .

وتابع الرجل كلامه ، قال :

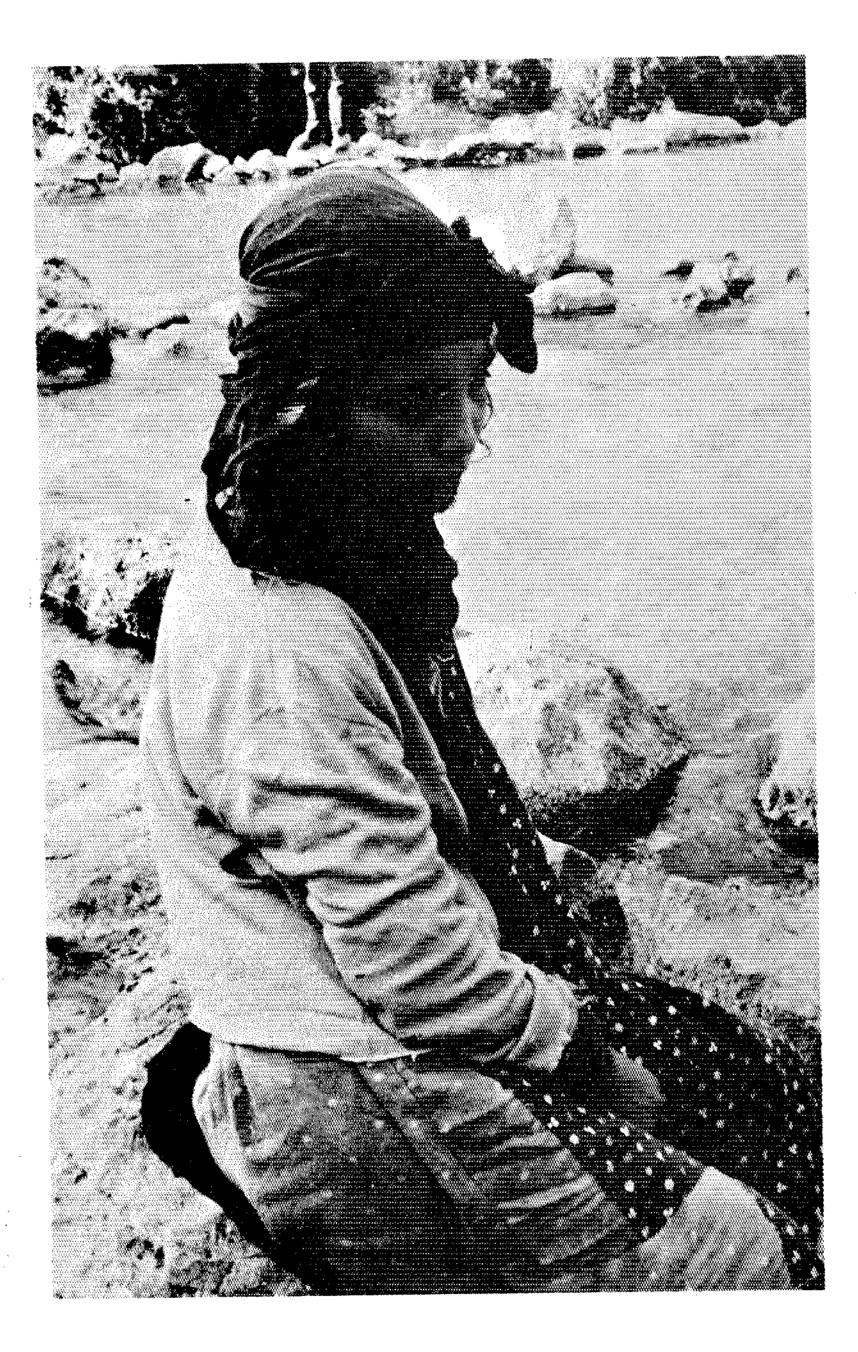
— وكان عندي ديك اسمو « بوقاسم » نبتت له لحية متل لحية الزلمي . هذا دليل ان « بوقاسم الديك » كان من أصحاب الكرامات ، لان ربنا ، سبحانو تعالى ، خلق الانسان على صورتو ومثالو ، وجعل اللحيه علامه ، لذلك، الحرمه — كذا — وباقي المخلوقات ما عندها لحيه ، لان الله ما خلقها على صورتو ومثالو .

— صرفت قسم كبير من محبوسيتي في زنزانه مظلمه ،

كان رفيقي فيها رجل متدين مسكين ، علّمني أشياء كثيرة مفيدة ، قال ، ان سيدنا نوح ، عليه السلام ، عندما بنى سفينتو وأغلق بابها ، صار لا يعرف الفجر من العصر ، ولا الصباح من المساء حتى يؤدي فرائض الصلاة في مواعيدها . لكن الملاك جبرائيل دبّر المسألة وألهم الديك يصيح بمواعيد الصلاة ، داعيا نوح إلى الصلاة . وبقي الديك حتى يومنا هذا ، يصيح في مواعيد الصلاة قائلا : « يا نوحْ ! الصلاةْ ! يا نوووحْ » .

— وكان زميلي في السجن هذاك الرجل التقي المسكين يهب إلى الصلاة كلما اخترق ظلمة السجن صوت ديك يصيح من بعيد : « يا نوح الصلاة يا نوووح » . ولكن فجأة انقطع صوت صياح الديك ، فانقطع صاحبي عن الصلاة وصار ظلام السجن ثقيلاً جداً على صدره ومات من ضيق نفسه . كان يقول انه مظلوم ويداوي الظلم بالايمان والامل . لكن في آخر حديث له معي قال : « يا ابني ، الله في بعض الاحيان يغض الطرف عن مكايد الشيطان . اتقِ الله من كل قلبك لكن احفظ خط الرجعة مع الشيطان لغدرات الزمان » .

في تلك الساعة أدركنا القرية ، دون ان نشعر بطول الطريق من طرافة أحاديث الرفيق ، فشكرت الرجل بحرارة وقلت له : « إلى اللقاء غداً في غرفة الاقتراع » . فابتسم ابتسامة عريضة وهو قابض على يدي ، وقال : « عشر سنين حبس ، تعلمت من كيسي » .



أمْثالنا تفضَحنا (١)

يحكى ان رجلاً من احدى قرى الجنوب ، كانت له معاملة في احدى الدوائر الحكومية ، فطلب منه الموظف المسؤول ، اولاً ، شهادة مختار فقدمها . ثم طلب منه في الجلسة الثانية شاهدين فجاء بهما . ثم طلب منه في الجلسة الثالثة افادة عقارية فأحضرها . وفي الجلسة الرابعة قال له : « قررنا تكليف خبير للنظر بالموضوع ، فهل تريد ان تؤمّن اجرته ؟ » . فبحلق الرجل بوجه الموظف برهة ، ثم قال : « صحيح ان الحكومه « مرا » لتصير الحكومه « زلمي » منبقى نحكي » .

وهكذا أراد هذا الرجل ، على سجيته ، ان يقول كلمة بالحكومة فلم يجد على لسانه الا كلمة « مرا » ، اذ لو كانت

---

(١) نشرت في ملحق « النهار » بتاريخ ٧٢/١٢/٣١

الحكومة رجلا لعرفت ماذا تريد من أول مرة وتكلمت كما يتكلم الرجال .

وهذه القصة تذكرنا بخليل معتوق الذي كان يقول : « الحكومة امراة ، فلا يمكنك ان تكسب صداقتها الا اذا راودتها عن نفسها » — وخليل معتوق هذا ، كان في زمانه تاجر تبغ وتنباك اسعده الحال فصار من كبار رجال المال ومن فرسان المغامرات والمراودات في أيام الانتداب —

واذا أمعنا النظر بهاتين القصتين ، نجد ان الاساءة هنا ليست موجهة إلى الحكومة ، أية حكومة ، بقدر ما هي موجهة إلى المرأة ، كل امرأة عندنا .

فنحن اللبنانيين — بارك الله بأصلنا — عندنا أمثال وأقوال مأثورة كثيرة تدل على سوء نظرتنا إلى المرأة ، ورحم الله من قال : « أمثالنا مثالنا » فكلما خانتنا الشهامة في مواقف الكرامة ، نقول : « الرجال عند غراضها نسوان » ، كما نقول في مواقف اخرى : « البيت اللي ربّو مرا كرمالو لورا » ، و « ما بيسمع للمرا الا كل خ .. » ، وقد سمعنا كذلك من يقول : « المرا اسمها حرمه لان الله حرمها من العقل » ، « والمرا مثل المعزايه ان تركتها على هواها أكلت الاخضر واليابس » .

وهذه الاقوال متأصلة في نفوسنا ، تفعل فيها أكثر مما تفعل مئة محاضرة عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل ، ولا بد

لمن أراد ان يتحرى أسباب تخلف المرأة عندنا ، ان يفتش عن جذور هذه الاقوال في نفوس الرجال .

التأنيث في لغتنا العربية حكمة إلهية

وقد لاحظ أحد المستشرقين ، ان الكلمات العربية ، ذات المضامين البغيضة ، أكثرها كلمات مؤنثة مثل : مصيبة وضريبة وعلة وفتنة وطائفية وخيانة ومحاكمة وأفعى وعقرب وأم أربع وأربعين الخ ... واننا نطلق أسماء مذكرة على الاشياء العظيمة مثل السيف والرمح والقلم .

وقد حقد أجدادنا على الشمس ــ سامحهم الله ــ فجعلوا اسمها مؤنثاً ، لانها كانت تكوي أجسادهم بحرارتها في الصحراء . بينما قدّسوا القمر وجعلوا اسمه مذكراً ، تكريماً له ، لانه كان رفيق المسافرين وهادي التائهين في الصحراء وملهم الشعراء والمؤمنين وأنيس العشاق والمتسامرين . ولذلك استدرك المتنبي ، فاعتذر عما بدر ، عندما قال في ام سيف الدولة :

« وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال »

ومما يذكر ان الكاتب المصري سلامه موسى ــ الذي كان يوجه الانظار دائما ، بكتاباته إلى وجوب اعتناق روح المبادرة في التفكير ــ دعا يوما إلى الغاء « نون » التأنيث قولا

وكتابة ، فانبرى للرد عليه كاتب عربي آخر قال ان التأنيث في لغتنا العربية هو حكمة الهية ترمز إلى حتمية عدم المساواة بين الرجل والمرأة .

كما اميط اللثام ، مؤخراً ، عن اكتشاف هام ، وهو ان « ميم » « هم » المنتصبة إلى تحت ، و « نون » « هن » المقعّرة إلى فوق . ترمزان إلى عضوي التذكير والتأنيث عند الرجل والمرأة ، وان النقطة فوق النون تشير إلى ما يجب ان يكون — ولله في امته شجون — كأن سائر امم الأرض ليست عندها أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث ، حتّى افتقرت لغاتها إلى مثل هذه الرموز السامية .

« المرا مثل السجّادة ما بتنظف الا بالخبيط »

ولا بد الان من عود على بدء ، حتّى لا ننسى المثل القائل : « هم البنات للممات » ، فاذا بشرتنا القابلة بصبي أغدقنا عليها الهبات ، واذا كان المولود ابنة وجمنا كأننا في سبات .

ومما يروى أن رجلاً ، من احدى القرى اللبنانية رزق ابنة فسماها « كفى » واحتاط من أول الدرب فنذر ليرة ذهبية لمار مطانيوس ليرزقه صبياً ، فرزق ابنة ثانية سماها « تمام » . ونذر ليرتين ، بعدئذٍ ، لمار الياس الحي فرزق ابنة ثالثة

سماها « منتهى » . ثم استنجد بمار بطرس فرزق ابنة رابعة سماها « خاتوم » وتوجه إلى مار جريس فنذر له عشر ليرات ، ولكن الله بفائق حكمته لم يعطه حسب نيته ، فرزقه ابنتين توأمين سماهما « حانا ومانا » لكي يصح فيه قول المثل : « بين حانا ومانا ضاعت لحانا » .

ولا بد كذلك من الحديث عن « الوهرة » ، وعندنا القول المأثور : « زلمي بلا وهره خيال صحره » ، وخيال الصحره هو « الزعطوط » او اللعين الذي ينصبونه بشكل انسان في الحقل لتخويف الثعالب . وصاحب الوهرة ان دخل إلى منزله عبس ، وان تنحنح جمد الدم في عروق أهل بيته ، وان استعمل عصا التأديب من حين إلى حين ، فلكي يسمع الجيران صوته ، فيقال ان بيته بيت رجال ، ولا سيما اذا كان عنده بنات لان المثل يقول : « خذوا بنات الرجال ولا تسألوا عن مال » ، واللي ما بتنفق على بياض خدودها بتنفق على جاه بيها وجدودها » .

ولكن ، لعل أسوأ ما سمعناه من أمثال وأقاويل هو : « المرا كل ما بهدلتها حبّتك وكل ما دللتها سبّتك » ، و « المرا متل السجّاده ما بتنظف الا بالخبيط» .

... « وأرملة تعيش بلا رجاءٍ »

ومما يروى ان الطبيب الشاعر الدكتور شاكر الخوري

– أحد مشاهير أطباء القرن الماضي – جاءه يوما مريض ، ربما كان من شعراء ذلك الزمان ، وطلب منه ان يفحصه ويكتب له وصفة طبية ، ففحصه وكتب له على قصاصة من الورق الوصفة التالية :

« ثلاثٌ هنّ من شرك الحمامِ وداعية الصحيح إلى السقامِ
دوام مدامةٍ ودوام وَطءٍ وانزال الطعام على الطعامِ »

وعاد الرجل إلى بيته واطلع زوجته على أسباب علته ، ولا سيما « دوام وَطءٍ » ، وكانت زوجته هذه ما تزال فتية ، ولكن ذات اخلاقٍ رضية ، فاتقت ربها واحتشمت . وتحسنت صحة الرجل بعد ذلك ، بينما ساءت أخلاقه واضطربت اعصابه ، فأخذ يشتم زوجته ويضربها بسبب وبدون سبب ، حتى ساءت صحتها وتفاقمت كربتها ، فتوجهت أخيراً إلى الدكتور شاكر الخوري ، نفسه ، وشكت له حالها ، فطيب خاطرها وكتب لها الوصفة التالية وطلب منها ان تقرأها ثلاث مرات يومياً :

« ثلاثٌ هنّ اقـدار النساءِ فتاة في الخباء بلا صفـاءِ
وزوجـة سيّد شرهٍ جبـانٍ وأرملة تعيش بـلا رجاءِ

إصْبِرُوا على نسائِكم إنّ اللهَ يُحبّ الصَّابِرين

عثرنا في كتاب « تاريخ الشام » المكتوب في القرن الثامن

عشر ، على قصة جميلة ، نقلها حرفياً ــ يقول مؤلف الكتاب الخوري مخائيل بريك الدمشقي ــ

« في هذه السنة « ١٧٥٠ » توفي أحد كهنة دمشق وفي ليلة دفنه في آخر الليل اجتاز على المقبرة رجال محملين تبناً ، فنظروا فوق قبر الكاهن عمود نور ممتد من السماء إلى فوق ذلك القبر ، وسمعوا أصوات وتنغيم أدهشهم ، وشموا رائحة زكية عظيمة ، ولما دخلوا المدينة أخبروا بذلك ، فبحثنا عن الامر وكيف صار هذا ، فوجدنا انه ــ أي الكاهن المتوفي ــ كان له امرأة خبيثة وشريهة وهو صابر عليها وشاكر الله تعالى ، فعرفنا ان الله تعالى منحه هذه النعمة من أجل صبره واحتماله لان الله لا يضيع أجر الصابرين » .

بيد ان ناشر الكتاب وواضع حواشيه الخوري قسطنطين الباشا ، يقول في حاشية هذه القصة : « معلوم ان العظام تتضمن شيئاً من الفصفات الذي يتحلل مع الايام إلى فصفور منير في الليل ، فليس في الحادث المذكور شيء من العجائب او الآيات السموية » .

وهكذا فان الخوري قسطنطين ــ سامحه الله ــ يفسد جمال هذه القصة ، ويلقي شكاً بنوايا زميله الخوري ميخائيل ، الذي ربما أراد ان يقنعنا ان الله تعالى يختص بنعمته كل من يصبر على خبث وشراهة زوجته .

«مَن طاوَع الإناث دَفعَ الطَاق مثنّى وثلاثْ»

على طريق دمشق قبر مكتوب على بابه : « من طاوع الاناث دفع الطاق مثنى وثلاث » — هذا على ذمة الراوي — . ويروى ان رجلاً ارتكب جرماً فحكم عليه القاضي ، إما أن يدفع مئة ليرة ، وإما ان يُجلد مئة جلدة ، وإما ان يأكل مئة بصلة .

وكان الرجل ضعيف الارادة ، يأخذ رأي زوجته في كل شاردة وواردة، فقالت : « البصل ابن عم العسل ، يأكله كبار الناس وان أكثروا منه فلا باس » . وكان صديقنا هذا ، كذلك ، من سوء حظه ، لبيباً يفهم من الاشارة ، فاختار أكل البصل . لكنه ما كاد يزدرد البصلة الرابعة والستين حتّى « تبلحصت » عيناه « وتدرفشت » شفتاه ، ويبس لسانه في حلقه ، وأعلن عجزه عن متابعة أكل البصل .

فقيل له : « اذن عليك ان تختار إما المئة ليرة وإما المئة

جلدة » . فالتفت إلى زوجته متسائلا ، فقالت : « وجع ساعه ، يا زلمي ، ولا وجع كل ساعه ، والمثل بيقول : كل أسى بينتسى الا خسارة المال والعيال » . ففهم الرجل كذلك ، من الاشارة ، واختار ، مكرهاً ، المئة جلدة .

وجيء بالجلاد وبدأ عد الجلدات ، وصار الرجل يتلوى ذات اليمين وذات الشمال وزوجته تشدد عزيمته : « هوّنها بتهون ، ما في شِدّه على مخلوق بتدوم ! » . لكنه ما كاد يتلقى الجلدة الثانية والسبعين حتّى اصطكت ركبتاه واختلجت رئتاه وترنح وتداعى وصاح : كفى !

ثم لملم ما تبقى من ارادته وكرامته وحلحل كمره ودفع المئة ليرة ، ومضى فوراً وطلب مقابلة الوالي والتمس منه ان يأذن له ببناء قبر إلى جانب الطريق العام ، يدفن فيه بعد موته ، ويكتب فوق بابه : « من طاوع الاناث دفع الطاق مثنى وثلاث ».

* * *

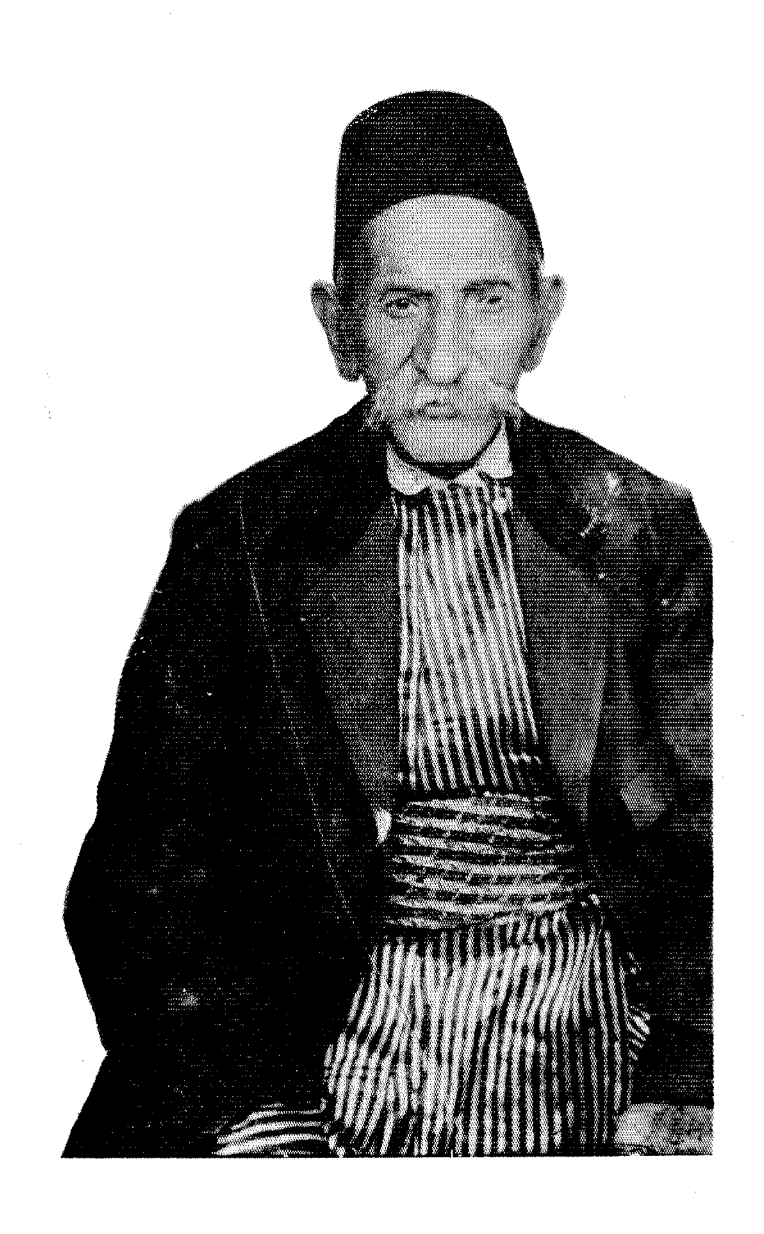
المرا ، اعدا اعداها : سلفتها وكنّتها وبنت حماها

راوية متمرّس بعلم طبائع النساء يروي — على ذمته — ان رجلا مـــن ابناء قريته ، دأب في مجالسه على امتداح زوجته وتأكيد اعجابه بعفة لسانها وصدق محبتها لوالديه وسائر ذويه . وكانت المرأة تجاري رأي زوجها فيها فتعتصم بالصمت وتلوذ بالكتمان .

واصيبت المرأة أخيراً بهزال شديد وشحوب مخيف وغارت عيناها وقل كلامها ونومها وطعامها ، وبعد ان عجز الاطباء عن تشخيص دائها ومعرفة دوائها شكا الرجل أخيراً ، امره إلى شيخ حكيم في القرية ، اشتهر برجاحة عقله وسداد رأيه فقال :

— دع زوجتك تصرّح بحرية عن شعورها الحقيقي نحـــو والديك ، وشجّعها على انتقاد سائر ذويك . وإذا لزم الامر افسح لها في مجال التحدث عن شناعة زوجة اخيك وشقيقتك وسائر نساء عائلتك ، تصح باذن الله ، لان المرأة ربيعها في التشنيع على اقارب زوجها ، والمثل يقول : « المرا ، اعدا اعداها : سلفتها وكنتها وبنت حماها »

وعمل الرجل بنصيحة الشيخ فشفيت زوجته في الحال .



« عِنْدَ اخْتِلافِ الدّوَل اِحْفَظْ رَاسَك »

الحاج قعدان صاحب أكبر شاربين في القرية . بالاضافة إلى ثخانة شاربيه وكثافة حاجبيه وخشونة عارضتيه ، اشتهر بضخامة نبرات صوته ، فاذا تحدث في مجالس الرجال وضع أصابعه على شاربيه وتكلم كمن له سلطان .

يقال انه صدق قول من قال يوماً ان الحاج قعدان ينقصه لحية ليصير مثل المير بشير ، فحاول ان يربي لحيته ، ثم ارعوى ، لان كثافة شعرها ونموها كانا دون المطلوب .

لكنه على كل حال وضع صورة الأمير الشهابي في صدر مجلسه وراح يتسقط قصصه وأخباره عن ألسنة الناس ومن بطون الكتب ، ليرويها على مجالسيه حول مواقد الشتاء . الا ان القصة التي استحوذت على أفكار الحاج قعدان ، أكثر من سواها من القصص الشهابية ، كانت قصة المير بشير في مالطه ، عندما جاء حاكم الجزيرة يزوره وكانت معه

زوجته ، التي استهوتها لحية الشهابي الكبير ، فطلبت من زوجها ان يربي لحية مثل لحية الامير ، وعندما سأله الحاكم ، ماذا يجب ان يفعل الرجل لكي يحصل على لحية كبيرة محترمة مثل لحيته ، قال : « أغلب الظن ان من تدخل زوجته أمامه إلى مجالس الرجال لا يستطيع ان يحصل على لحية محترمة » .

* * *

رزق الحاج قعدان ، في أيام شبابه صبياً ، فقال الذين جاؤوا للتهنئة : « يلزمك الان بنت » فأجاب : « ان الله تعالى ، عنده صبي وحيد ولو أراد لكان عنده بنت كذلك » . فقال الناس : « جبَّر قعدان ! الله يجيرنا من جبر العبد على خالقه » . فمات الصبي . ثم رزقه الله ابنة وحيدة سمّاها « سعدى » تيمناً باسم ابنة المير بشير ، وعندما شعر ان أهل القرية كانوا غير مستعدين ان يكنّوه بكنية « أبي سعدى » زار الديار المقدسة فصار اسمه الحاج قعدان ، لان اعتبارات الرجل لا تتم الا اذا صار اسمه « ابو فلان » او « الحاج فلان » .

وعندما كبرت سعدى جاء من يخطب يدها ، — « هجم نصيبها » — بلغة أهل القرية — فنزل الحاج مع ابنته وذوي العريس إلى بيروت ليقصوا جهاز العرس : « نزلنا نتقمش ونتصيغ » ، يقول الحاج قعدان ، « فتعربط بنا واحد من زقاقاتية سوق القماش القريب من سوق الصيّاغ ، وصار

يدخل إلى المحلات أمامنا ويساوم التجار عنا ويمون بالتالي علينا ، فاشتلقت أخيراً أنه غمز أحد التجار وسأله عن سعر ذراع التنتنا فقال : « اربع بشالك » . فصاح الزقاقاتي به : لا تتمقطعوا فينا ، نحنا منعرف أسعار التنتنا ، وحياة شوارب عمي الحاج قعدان ما مندفع الا ثلاث بشالك » . فبصقت عندئذٍ على كفي وناولته ، ثم تناولته وبصقته خارجاً ، وقلت للتاجر : « قديش سعر ذراع التنتنا ؟ » قال : « عالذمه ، نصف بشلك » .

ويضيف الحاج قعدان ، كلما روى هذه الحادثة : « لو كنا في أيام المير بشير لتعلقت المشنقة في ذلك النهار » .
وهكذا يرجع مرجوع الحاج قعدان دائماً إلى المير بشير ، فيستشهد بقصة او بحادث او بعبارة منسوبة اليه ، شأنه في ذلك شأن كثيرين من اللبنانيين الذين ، بسبب افتقار تاريخنا إلى قصص المجد والبطولة ، يحيكون الاساطير أحيانا حول بعض الشخصيات المشهورة ولا سيما شخصية الامير الشهابي الكبير .

لكن قصة المير بشير مع زوجة حاكم مالطة بقيت زبدة أحاديث الحاج قعدان ، يحور ويدور ويرجع مرجوعه اليها . وكان في كل مرة يعود اليها يزيد عليها حاشية جديدة ، او يتبسط في شرح ناحية معينة ، او يرش عليها بعض البهارات

والافاويـــه ، فيعطيها مذاقا جديداً حتى لا نمل سماعها .

* * *

وبالرغم من ثقل وطأة التسعين سنة على كاهل الحاج قعدان ، ما زال عقله نيراً ، فلا تختلط رؤاه بمرئياته ولا تشط سهام كلامه عن مراميها . سمعت أمس انه مريض ، فقلت لمن كان حولي : « هلموا نسمع ، اذن ، وربما لآخر مرة ، آخر ملامسات قصة المير بشير مع امرأة حاكم مالطة » .

كان الرجل مريضاً جداً ، لكنه كان يتجالد لأنه يأنف ان يظهر ذليلاً أمام الناس ، فبادرته بقولي : « بيرجع مرجوعنا لامرأة حاكم مالطة ، اريد ان اكتب قصتها لئلا تضيع ، واحب ان أعرف الحقيقة ، قلت لنا يوماً ان سر عظمة المير بشير في جمال لحيته لذلك تمنت امرأة حاكم مالطة ان يسمح لها الامير بأن تلمس بأصابعها أطراف لحيته . كما رويت لنا مرة ان الامير كان اذا وقع نظره على نظر امرأة انحلت خرزات ظهرها ، لذلك بركت زوجة حاكم مالطة ، وما زالت باركة حتى الان . وخلال كلامك يوماً عن صفات الامير الكبير الذي كان يغضب اذا جلس في حضرته أيّ كان ورفع رِجلا على رِجل ، رجع مرجوعك عندئذٍ إلى امرأة حاكم مالطة فذكرت انها جاءت بثياب رقاق وقعدت قبالة الامير فرفعت ساقا على ساق — وهذا ما لا يطاق . فهل كانت موضة الفساطين المشفلحة معروفة في ذلك الزمان ؟

فتململ الرجل في فراشه كأنه يريد ان ينهض ، وتندى جبينه بالعرق وتمتم قائلا : « اكتب القصة كما تشاء ، وزد عليها ان حاكم مالطة أجاب : « ليس المهم ان يكون عند الرجل لحية كبيرة محترمة ، المهم ان يحفظ راسه عند اختلاف الدول » .

* * *

مصيبتها اكبر !

غرق مركب في عرض البحر بجميع ركابه ، عدا رجلين تعربطا بلوح خشب وراحا يصارعان به أمواج البحر المتلاطمة . ومر على هذه الحالة ساعات كادا يهلكان فيها من الحر والظمأ والعياء . وفي غمرة من اليأس سأل احدهما الآخر : « هل توجد في الدنيا مصيبة اكبر من مصيبتنا ؟ » قال :"نعم ! امرأة ، تزوجت ابنة شقيقتها ولم تجد هي ، حتى الآن عريساً لابنتها ، مصيبتها اكبر من مصيبتنا »

مِن أيّام الجزّار(١): البارود للطرب عند العرب

أذاعت قيادة الجيش تعميماً حذرت فيه المواطنين من اطلاق الرصاص لمناسبات الافراح والمآتم وخلافها والا فانها ستعمد إلى تطبيق الانظمة والقوانين في حق المخالفين من دون استثناء .

وعادة اطلاق الرصاص في المناسبات قديمة في لبنان وشائعة كذلك في سوريا وفلسطين وبعض الاقطار العربية ، انما تصعب معرفة تواريخ نشوئها وظروف انتشارها ، الا اذا عوّلنا على بعض الاخبار المنشورة عرضا في بعض الكتب والمخطوطات ، واعتمدنا على العنعنات المنقولة عن ألسنة الناس .

(*) نشرت في ملحق النهار بتاريخ ٧٢/١٠/٨

يحكى أن احمد باشا الجزار ، عندما تولى مقاليد السلطة ، قبض على شيخ المسلمين وكاهن النصارى وحاخام اليهود في مدينة عكا ، ووضعهم معا في السجن ، وبث عليهم الارصاد بطريقة محكمة بحيث كان في امكانه ان يحصي حركاتهم ويفهم همساتهم . وبعد مدة استدعى الشيخ والكاهن وقال لهما : « انتما كنتما طوال مدة وجودكما في السجن تستعديان الله عليّ ، فتطلبان منه في صلواتكما ان ينتقم لكما مني ، لذلك سأرسلكما اليه الان فتشكواني عنده ، وجها لوجه » .

وهكذا أعدم الجزار شيخ الاسلام وكاهن النصارى ، واستبقى حاخام اليهود « حاييم فارحي » الذي كان يستدعيه كلما تعقدت الامور واستعصى عليه حل احدى القضايا ، ويأخذ رأيه في الموضوع ، فاذا كان غير مصيب اقتص منه بقساوة ، حتى انه جدع أنفه وقطع احدى أذنيه واقتلع احدى عينيه وأنزل فيه غير ذلك من صنوف التعذيب .

ومما يذكر ان الجزار ، عندما أراد ان يذهب إلى الحج استشار « حاييم فارحي » بشأن حريمه ، فأشار عليه هذا ان يستدعي قبل سفره كل زوجة من زوجاته على حدة ، ويطلب منها سرا ان تتجسس له في غيابه على سائر زوجاته ، فتخبره بصدق وأمانة ، بعد عودته ، عما فعلن في غيابه .

فعمل الجزار بنصيحة حاييم ، وعندما رجع من الحج أضرم محرقة هائلة شوى فيها جميع زوجاته السبع والثلاثين

حتى الموت ، لان كل واحدة منهن أخبرته ان جميع زوجاته – ما عداها طبعا – ارتكبن الفحشاء مع عبيده في غيابه ، مع ان عبيده هؤلاء كانوا جميعهم من الخصيان – « وما بينجر عليهم سلاح » – وقد كانت هذه المجزرة من أشهر مجازر الجزار .

في تلك الايام تطورت صناعة البارود وشاع استعماله في البلاد ، كما كثر وجود الغدارات والطبنجات في أيدي الناس ، بالاضافة إلى الأسلحة الفرنسية التي تسربت ، خلال حملة نابوليون ، إلى عدد من زعماء نابلس وجبل عامل . ويذكر فؤاد أفرام البستاني في كتابه « على عهد الامير » ان الجزار كان يقول : « عندي ثلاث مقاطعات : صفد ونابلس ولبنان ، لا تنفك ترسل إليّ محتوياتها . فمقاطعة صفد تسدّني فضة وذهبا وجبل نابلس يسدني رصاصا وبارودا وجبل لبنان يسدني كذبا ونفاقا » .

البارود للطرب عند العرب

ومن أخبار حايم – المستشار الحكيم – أنه كان ينصح الجزار بالتغاضي عن اطلاق النار في الفضاء ، لكي يفش الناس خلقهم بالسماء حتى لا يفشوا خلقهم بالجزار في أحد الايام . ولا نعلم اذا كان الجزار قبل بهذه النصيحة أم جدع انف حايم بسببها .

وهذا يذكرنا بما قالته سيدة اميركية كانت تزور بعلبك ، خلال الحرب الفلسطينية في أيار ١٩٤٨ ، عندما سمعت اطلاق رصاص بغزارة ، وسألت عن السبب فقيل ان القوم يشيعون شهيدا فقالت : « وهكذا يفشون خلقهم وينتهي الامر ».

وحدث يوما خلال وجودنا في أحد المتنزّهات ان جماعة بالقرب منا كانوا يصخبون في جلسة طرب ، ويعبرون عن رهافة احساسهم بتفريغ مسدساتهم في الفضاء ، بعد كل بيت من العتابا ، بلا استحياء . فعلق رجل اجنبي كان معنا بقوله : « والبارود اذن للطرب عند العرب » فاستحينا نحن وسكتنا .

ومن القصص المعروفة ان المتصرف رستّم باشا عندما قدم إلى دير القمر سنة ١٨٧٣ استقبله وفد من وجهاء البلدة وطلبوا منه أن يأذن لأهالي الدير باطلاق البنادق على اكمة تقابل بيت الدين ترحيبا بقدومه ، فاذن لهم قائلا : « احب الروائح إليّ رائحة البارود » .

ولم يلبث رستّم باشا ان استدرك ، بعد مدة قصيرة ، فمنع اطلاق النار ونقل الأسلحة وصيد الطيور . وقصته مع قنصل انكلترا مشهورة عندما دعاه هذا إلى مائدته وقدم اليه بعض الحجال ، فقال رستّم باشا : « نحن منعنا صيد الطيور ، فكيف حصلتم على هذه الحجال ؟ » . قال القنصل : « كلفنا أحد رجالنا اصطيادها لنقدمها اليك على مائدتنا ». فقال رستّم باشا : « ولكن القانون هو القانون » ، وأمر بمصادرة البندقية المستعملة لهذه الغاية .

لبنان دائما لبنان

ومن الاخبار الطريفة ما نشرته مجلة « أوراق لبنانية » في عدد اذار ١٩٥٥ حول « تشريف عظمة البرنس نابليون هذه الديار في مطلع صيف ١٨٦٣ » ، فقد أمر المغفور له داود باشا متصرف الجبل بأن يستقبل الزائر استقبالا حافلا ، شريطة « ان لا يحصل قواس من طرف احد » .

وتقول المجلة : « وعلى الرغم من هذا التنبيه الرسمي فقد حصل القواس — لبنان ، هو دائما لبنان ! — وأصيب أحد المستقبلين بطلق ولم يلبث ان مات » .

ونحن ننقل هنا عن مجلة « اوراق لبنانية » نص كتاب الامير افندي شهاب وكيل عامل ساحل النصارى إلى المتصرف داود باشا يعلمه به بما جرى :

« المعروض لاعتاب دولتكم

غب افتقاد الخاطر ، انه نهار الجمعة في ٢٦ حزيران غربي بوقت ملاقاة عظمة البرنس نابوليون فكان من جملة الملاقين نصر الله ابن لياس ريشا من قرية الشياح ، قوص بارودته أصابت فارس ابن عساف الخوري من المحل المذكور في جنبه .

وفي هذا الليل ، الاربعه ، الذي مضى توفي فارس المذكور وحين بلغنا ذلك استحضرنا المعلم حبيب خالد وأرسلناه لينظر

سبب توفي فارس المرقوم ، وغب كشفه له أعطى تقرير معلوميته ، واصل لجنابكم لقا تحريرنا هذا .

وأرسلنا تنبيه إلى أقارب المتوفي انهم يبقوا دفنه لبعد صدور أمر دولة افندينا المعظم ، حيث متقدم منا معروض لاعتابه بهذا الصدد .

ونصر الله المذكور ، من ذاك الوقت الذي قوس فارس هرب . وقيل أنه موجودا نواحي زحله ، وقيل انه نواحي حمانا .

ونحن ما بلغنا هذه الواقعة الا هذا النهار . ودام بقاكم .

في ٢٩ محرم ٨٠ وفي ٣ تموز ٦٣ .

وكيل عامل الساحل »

الوطن وجنوده

يقول التاريخ ان كليمنصو ، الملقب بالنمر ، هو الذي قاد فرنسا إلى النصر في الحرب الكونية الاولى . وحدث بعد انتهاء الحرب بمدة وجيزة ، وفيما كان كليمنصو في اوج مجده ، ان جنديا فرنسيا مرهق الاعصاب أقدم على اطلاق الرصاص عليه من بندقيته ، لكنه أخطأه ونجا كليمنصو باعجوبة ، وعندما سألته المحكمة عما يطلب بصفته صاحب الحق الشخصي ، أجاب :

« ان هذا الجندي لا يجيد الرماية ، وهو أمر مشين بحق الجندية الفرنسية ، لذلك أطلب ان تحكموا عليه بالسجن شهرا واحدا ، لانه أتلف بضع رصاصا ت دون أن يصيب الهدف ، وأن ترسلوه بعد ذلك إلى أحد معسكرات التدريب على الرماية ، فقد تحتاجه فرنسا مرة اخرى » .

* * *

اللبنانيون اصحاب مصانع وتجارة

عندما غزا ابراهيم باشا المصري بلادنا ، ارسل محمد علي باشا والي مصر ، كتاباً إلى الامير بشير الشهابي يقول له فيه : « وافوا ولدنا ابراهيم إلى عكا » . فاجابه الامير بشير : « اني مستعد ان اخدم دولتكم إلى آخر نسمة من حياتي ، وقد باشرت بجمع الرجال » فأتاه الجواب يقول : « لا لزوم لرجالك لانها ليست عساكر منظمة ، بل رجال رعايا اصحاب مصانع وتجارة ، فلا يجوز اشغالها بشيء ليس مطلوبا منها » .

« مذكرات رستم باز »

نيّال اللي الو مرقد حمار في جبل عامل

يحكى ان رجلا من احدى قرى جبل عامل تزوج امرأة من بلاد جبيل واستوطن هناك مع امرأته ، وكان يرجع أحيانا إلى قريته ويأخذ بالحديث عن جبل لبنان وعذوبة مائه ورقة هوائه وجمال مناظره ، وينهي كلامه بالقول المأثور : « نيال اللي الو مرقد عنزه في جبل لبنان » .

ووقعت الحرب العالمية الاولى ، فوضعت الحكومة التركية قيودا مشددة على تجارة الحبوب ، ومنعت وصول المواد الغذائية إلى جبل لبنان ، من أجل تجويع ابنائه واذلالهم نكاية بدول اوروبا التي عملت على استقلال لبنان بعد حوادث سنة ١٨٦٠ ، فمات عدد كبير من اللبنانيين جوعا ، ونزح عدد اخر منهم إلى البقاع وعكار وجبل عامل وبقية أجزاء

(*) نشرت في ملحق النهار في ٧٢/٩/٢٤

ولاية بيروت ، حيث توجد أراض زراعية تكفي لاطعام سكانها ، وكان هذا الرجل من جملة النازحين .

فبعدما باع أكثر مقتنياته لشراء الطعام لاولاده ، وبعدما شعر بوطأة الجوع وخطر الموت ، عاد مع عائلته إلى قريته الاولى في جبل عامل ، ليجد فيها الطعام والامان .

وجاء من يخبر الحاج محمد سعيد البزي ، وهو يومئذ من وجهاء جبل عامل ، قصة هذا الرجل الذي حمل ما تبقى من حوائجه ، على ظهر حمار هزيل ، وعاد ذليلا إلى قريته ، فقال الحاج محمد سعيد : « ولكي يصح ان يقال ولو مرة واحدة في الحياة : « نيال اللي الو مرقد حمار في جبل عامل » .

« نحن من جبل عامل »

« جبل عامل » هذا كان في الاسبوع الفائت مسرحا لأهم الاحداث ، مع ذلك نسينا اسمه . فيه تقع بنت جبيل وتبنين وجويا والطيبه وسواها ، ومنه اقتطعت ، في أيامنا « المنارة » « ومسكفعام » القريتان الاسرائيليتان اللتان انطلق منهما العدوان مؤخرا على لبنان ، الا ان احدا لم يذكر اسم « جبل عامل » لا في البلاغات ولا في المقالات التي سمعناها وقرأناها ، لمناسبة هذه الاحداث .

والواقع ان اسم « جبل عامل » كان اختفى تدريجيا ،

بعد تقسيمه اداريا مناطق وأقضية ، وقل ورود ذكره ، حاليا على ألسنة أبنائه ، ولاسيما المثقفين منهم ورجال الاعمال ، حتى كدنا ننساه ، لولا بقية باقية من أبناء الطبقات الشعبية الكادحة الذين ان سألتهم أجابوا : « نحنا من جبل عامل » ، ولولا بعض المغتربين الذين اعتصموا به في مهاجرهم وسموا باسمه بعض جمعياتهم ومؤسساتهم .

ومن يتذكر يجد ان بعض العلماء والمجتهدين من رجال الدين في جبل عامل ، والعديد من الشعراء والوجهاء والمجاهدين كانوا يلقبون أنفسهم « بالعامليين » مثل : العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي والمجتهد الاكبر السيد محسن الامين العاملي وسواهما ، ولعل آخر من تلقب بهذا اللقب في أيامنا الشاعر المعروف كامل شعيب العاملي .

والذي نذكره ان أحد كبار علماء جبل عامل نبه بعض زعماء الجنوب في مطلع الاستقلال إلى محاولة طمس ذكر « جبل عامل » بغية طمس بعض معالم تاريخه المرتبطة بجهاد أبنائه واجتهادهم ، طوال اجيال عديدة . وطالب ان يقال « محافظة جبل عامل » ــ كما يقال « محافظة البقاع » ــ وذلك بدلا من تسميته « محافظة الجنوب »، دون ان يكون لهذه التسمية أي جذور تاريخية .

ويقال ان تسمية جبل عامل بهذا الاسم تعود إلى قبيلة « عاملة » التي هاجرت إلى هذه البلاد من الجزيرة العربية ، بعد انهيار سد مأرب ، كما جاء في بعض كتب التاريخ ، وكانت حدود جبل عامل تمتد إلى ما وراء مدينة جزين ، التي كانت احدى أهم مدن الشيعة ، وفيها نشأ العلامة محمد مكي العاملي المعروف بالشهيد الاول .

وفي تاريخ جبل عامل صفحات كثيرة مشرقة وزعامات شعبية متألقة ومعارك وطنية معروفة : خلال أحداث ١٨٦٠ التي قيل فيها « سنة الستين يا معين » ، وقف بعض زعماء الشيعة مواقف مشرفة من اخوانهم النصارى . وفي حروب العامليين وثوراتهم للدفاع عن كيانهم وكرامتهم ، لمع اسم الشيخ ناصيف النصار والشيخ علي الفارس وحسين بك الشبيب وحمد البك الوائلي جد آل الاسعد .

وللعامليين مفاخر وتقاليد بطولية ، ومن أشهر معاركهم تلك التي ظفروا فيها بجيش الامير يوسف الشهابي ، حيث كانت صباياهم تؤازر شبابهم وتثير حميتهم بالزغاريد والهتاف « وين راحوا ولاد ام علي — وين سياج العذارى — وين بني متوال يا عز الرجال » . و « اولاد ام علي » هو من القاب الشيعة كما هو معروف .

كذلك اشتهر جبل عامل بعلمائه وشعرائه الذين تميزوا

بالتصاقهم بالشعب فلم يتزووا في أبراج عاجية . ويروى ان احمد باشا الجزار أراد اذلال جبل عامل ففتك ببعض زعمائه ، الا انه لم يلبث ان وجد ان قوة جبل عامل المعنوية تكمن في علمائه ، فانقض عليهم بضراوة واعتقل وقتل وشرد العديد منهم .

ويقول محمد جابر آل صفا في « تاريخ جبل عامل » ان الجزار استولى على الكتب القيمة والمخطوطات التي كانت تحفل بها مكاتب جبل عامل ، كمكتبة آل خاتون التي كانت تحتوي على خمسة آلاف مجلد ، وعلى مكاتب آل الصغير والامين ونور الدين وشرف الدين وفضل الله والحر ونعمه ويحي والسبيتي والقبيسي وابرهيم ومروه والزين وغيرهم من بيوتات العلم والوجاهة ، ونقلها إلى عكا على ظهور الجمال ووزعها على الافران للحريق فأشغلها أياما .

والواقع ان تاريخ جبل عامل هو سلسلة من الفواجع والنكبات ، مرتبطة بتاريخ الشيعة إلى حد بعيد . ولأسباب لا مجال لذكرها الان ، فتك السلطان سليم الفاتح ، ومن تولى بعده من سلاطين بني عثمان ، بالشيعة في كل مكـــان ، واعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية . ويقول محمد جابر آل صفا في كتابه المذكور : « وبالاجمال ان الشيعيين لم ينلهم من الاذى في عهد الصليبيين مثلما نالهم في عهد الاتراك المسلمين » .

وسنة ١٦٣٨ انقض الامير ملحم المعني على جبل عامل وظفر بعدد كبير من أبنائه في قرية انصار ، حيث سقط منهم زهاء ١٦٠٠ قتيل ، وبعد أقل من مئة سنة دهم سميه الامير ملحم الشهابي قرية أنصار نفسها في احدى المناسبات ، وذبح فيها نحو ١٤٠٠ رجل من أبناء جبل عامل .

وفي عهد الانتداب الفرنسي لم يكن جبل عامل أحسن حالا وأهدأ بالا مما كان عليه في عهد العثمانيين ، فبقي أبناؤه يدفعون ضرائب الاتراك من ويركو واعشار ، ويعيشون في عزلة عن بقية مناطق لبنان . ولذلك دأبت حكومات عهود الاستقلال على اتاحة فرص النهوض أمامهم ، فأخذوا يتهافتون على العاصمة ويطرقون أبواب النواب طلبا لوظيفة او طمعا بالحصول على كتاب توصية .

زبال ، بوسطجي ، استاذ

في ذلك الوقت كان أبناء جبل عامل « يتندرون » بقصة قوال معنى اسمه علي يشتغل زبالا في بيروت ، ويلاحق في الوقت نفسه احد نواب الجنوب طلبا لوظيفة أرقى فيقول :

« يا حسرتي هالعيشة البلبهدله
بيتي على ظهري وبأيدي مكنسه
شو هم سيدي البيك لو عين « علي »
موزع بريد يمـــا معلم مدرسه »

وهناك قصة اخرى يتحدث عنها الناس ويستشهدون بها في المناسبات ، وهي منسوبة إلى أحد كبار زعماء الجنوب ، وسواء كانت هذه القصة من مستظرفات أحد الظرفاء او من الحقائق الثابتة ، فانها أصبحت جزءا من تاريخ جبل عامل .

يروى ان أحد زعماء الجنوب أراد ان يعين أحد أنصاره في وظيفة ما ، فلم يجد مركزا شاغرا الا في وزارة التربية ، فعينه معلما ، بصورة صورية فقط يقبض راتبه اخر الشهر دون أن يعمل شيئا ، لان صاحبنا هذا كان اميا .

وقررت الحكومة اخيرا ان تجري امتحانا لمعلمي المدارس الرسمية ، بغية معرفة الاكفاء منهم وغير الاكفاء ، فهرع صاحبنا إلى زعيمه وقال له : « راحت علينا ، محسوبك لا بيقرا ولا بيكتب » . فاجابه : « لا تهكل هم فقد عينتك عضوا في اللجنة الفاحصة ! »

هذه كانت حال جبل عامل في مطلع عهد الاستقلال ، اما الان وبفضل جهاد أبناء جبل عامل وجهودهم الخاصة ، نهضت صور والنبطية والخيام كأحسن مدن لبنان ، وصارت جويا وحبوش وجباع والقليعه وغيرها تتيه بجمال أبنيتها ، كما تزدهي مرجعيون وعين ابل وسواها من بلدات الجنوب بثقافة ابنائها وبناتها وأناقتهم . وصار العديد من معلمي المدارس وموزعي البريد مديرين او رجال أعمال ، بعدما حصلوا على شهادات عالية أثناء عملهم الموقت .

وبرغم الرياح الحارة التي تهب من الجنوب يثابر أبناء جبل عامل على استكمال عمران وطنهم وتثبيت دعائم نهضتهم ، لكي يصح ان يقال يوماً : « نيّال اللي الو مرقد حمار في جبل عامل » .

* * *

في بنت جبيل السمن ارخص من الزيت

يروي الرحالة الاميركي ادورد روبنصون في مذكراته ، انه قدم إلى بنت جبيل في ٢٢ حزيران ١٨٣٨ وبات في ضيافة احد وجهائها الذي ملأ السراج سمناً ، عوضاً عن الزيت ، لان اهالي بلاد بشاره – كما يقول روبنصون – لا يهتمون بزراعة الزيتون ، لذلك قل عندهم الزيت ، اما السمن فكثير .

ويقول روبنصون ان حاكم تبنين يتقاضى ٧٥٠ قرشاً ، راتبا شهرياً ، بوصفه حاكم المقاطعة ، ويدفع لكل واحد من الكتبة الثلاثة الذين يستخدمهم ٣٠٠ قرش ، راتبا شهرياً . ثم يقول ان السلطان انقص ٢٣٠٠ قرش من الضريبة المفروضة على سكان تبنين ، لكن الحاكم استمر على جبايتها والاحتفاظ بها لنفسه .

القسم الثاني

بيروت على ألسنة الناس

السلامة غنيمة

من عادات ملوكنا ، قديماً ، أن يعظّموا شأنهم ، بتفخيم ألقابهم ، ومن هؤلاء كان مؤيد الدولة عز الدين ابو المظفر اسامة بن منقذ ، الذي ولاّه صلاح الدين الايوبي على بيروت . ويروي صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ان اسامة هذا ، عندما علم ان الصليبيين استولوا على صيدا أخلى بيروت بدون حرب . وحدث بعد ذلك ان حاكم قلعة تبنين امتنع عن تسليم القلعة إلى الصليبيين ، فخاطبه أحد شعراء ذلك الزمان بقوله :

سلّم الحصن ما عليك ملامهْ ... لا يلام الذي يروم السلامهْ
فعطاءُ الحصون من دون حرب ... سنّة سنّها ببيروت « سامهْ »



الاسطول الايطالي يغادر بيروت ، سنة ١٩١٢ ، بعدما ضربها وقتل أكثر من مئتين من سكانها ، واغرق بارجتين عثمانيتين في مينائها .

« جَارَكَ أمَانْ ! دَارَكْ أمَانْ! »

تولى عبد الفتاح آغا حماده حاكمية مدينة بيروت في أواخر عهد ابراهيم باشا المصري ، وشيّد له فيها داراً فخمة رصف الزّقاق المؤدي اليها بالبلاط فدعي اسمه « زقاق البلاط » إلى يومنا هذا .

ويروي أحد معمري راس بيروت ان عبد الفتاح آغا كان يقول:« جارك أمان ، دارك أمان » ، ويذكر ، انه عندما تولى حاكمية المدينة استأجر له دارا في تلك المحلة ، واحب أولاً ان يتفقد الجوار قبل الاقامة في الدار ، فدخل بيتاً حقيراً مجاوراً فيه امرأة عجوز ، وسألها عن حالها فقالت انها من الله بخير ، ولكنها علمت ان السيد فتّيحة – اي « عبد الفتاح » بلغة أهل بيروت – جاء يسكن بالقرب منها فقلقت أفكارها .

فقال لها : « وماذا سمعت او عرفتِ عن هذا الرجل حتى ساورتك المخاوف » ؟ . أجابت : « انا امرأة مقطوعة لا زوج

لي ولا أولاد ، والسيد فتّيحة رجل عظيم ، والمثل يقول : « بِفَيّة الجميز ما بينبت حشيش ، واذا نبت ما بيعيش » . فاعجب عبد الفتاح آغا بحكمة الارملة العجوز وطيّب خاطرها وقال لها : « انا هو فتّيحة ، وانتِ جارتي ، ولكِ عليّ حق الجيرة ، فكوني مطمئنة » .

الجمّيزة صديقة البيروتي

عبد الفتاح حماده له حسنة تذكر . يقال انه زرع كمية من أشجار الصنوبر في حرج بيروت . لعله بذلك أراد ان يعوض عما فعله محمد علي باشا عندما أمر باقتطاع أشجار الجميز الوارفة ، في بيروت وضواحيها ، ونقلها إلى مصر حيث تصنع مخابيط لدق الارز .

في ذلك الزمان كانت الجميزة صديقة البيروتي . كل بيت في بيروت أمامه شجرة جميز ، يلعب تحتها الاولاد في ساعات الحر ، وتجلس على مصطبتها كل مساء ، نساء العائلة ، حول « الاراكيل » ، يمضغن المسلك ويشربن البيلسان والبابونج والبيسمون ، بينما يصعد رب العائلة إلى عرزاله المشدود في قلب الشجرة ، فينام فيه سيداً رفيع الجانب .

وكانت تنهض عدة أشجار باسقة في الساحات والطرق ، يستظل بها عابرو السبيل ، وكانت لبعض هذه الأشجار كرامات. كان الله يعلن رضاه عن احدى هذه الأشجار فيلهم طيور

اليمام أن تأتي وتبني أعشاشها فيها . وطير اليمام هذا طير مقدس يعيش في المعابد . لذلك كان كثيرون من قدامى البيروتيين ينشدون رضا الله عن طريق اليمام فيطرحون أمامه ما تيسر عندهم من طعام .

كذلك ، كانت لبعض الأشجار شفاعات وقدرة على شفاء بعض الأمراض ، يعلق المؤمنون قطعاً من ثيابهم على أغصانها ، فتهبهم الطمأنينة . وهذا النوع من الأشجار كان معروفاً في عدة أماكن ، في لبنان وسوريا وفلسطين ، وأنا ، شخصياً ، اعرف شجرة كبيرة على طريق مرجعيون — فلسطين ، يسميها أبناء المنطقة « شجرة ام شراطيط » ، يخلع المريض ثوبه على أحد أغصانها فتخلع عليه ثوب الشفاء . ومن كثرة ما تجمع على أغصانها من الثياب البالية صار اسمها « ام شراطيط » .

نعود إلى جميز بيروت لنروي قصة رواها لنا « هنري غيز » في كتابه « بيروت ولبنان » المطبوع سنة ١٨٣٧ — نقله إلى العربية مارون عبود — قال: « كان يوم باشر فيه الجنود بقطع أشجار الجميز مأتماً ، فالنظر الذي تعود رؤية هذه القباب الجميلة الخضراء لم يرتح الا بصعوبة إلى ذلك الفراغ الذي حدث عندما فقدت » .

ثم يروي المؤلف هنري غيز — قنصل فرنسا في بيروت في ذلك الزمان — قصة شجرة جميز في باب السماطية إلى

الغرب ، صمدت أمام فأس الوالي ، لان جنوده عندما قدموا لاقتطاعها وجدوا رجلا يمسك بالجميزة ويقبّلها . وعندما أبلغوه وجوب انسحابه وافساح الطريق للذين يقومون بأعمال القطع ، أجاب : « انكم لا تستطيعون ان تقطعوها قبل ان تقطعوا رقبتي » .

ويضيف المؤلف : « ان بعض المسلمين الاتقياء يهتمون بترك مآثر خلفهم تقدس ذكراهم وتستمطر لهم نعم العزة الالهية . فالشرقيون اعتادوا ان يسألوا الله الرحمة لفاعل الخير . وقد تبين أن جميزة باب السماطية غرسها رجل صالح قرب سبيل ماء ، ليتفيأ بها عابرو السبيل فيترحمون عليه . لذلك عندما فهم الضابط الموفد لقطعها قصتها عفا عنها » .

* * *

الامام الاوزاعي

اشتهرت بيروت في القرن الثامن انها كانت مقر الامام الاوزاعي الذي اشتهر بعلمه وفضله ، فلقّبه ابناء زمانه « امام اهل الشام » . وكان يقول : « من تعلّم باباً من ابواب العلم كان افضل من عبادة حول يصام نهاره ويقام ليله »



« لئن شكرتم لأزيدنكم

سَلِمَتِ القَافِيةُ وَانْعَدَمَتِ العَافِيةُ

وقد عرف أجدادنا العرب الاولون — نتيجة تمرّسهم بحرارة الصحراء — أهمية الظل ، لذلك قيل قديماً : « لا هناء بدون ظل وماء » . ولذلك درج بعض المؤمنين الاغنياء على انشاء سبل ماء او برك يشرب منها المارون ويترحمون .

ولكن مما يقلل قيمة مثل هذه المبرات ان أصحابها كانوا يطلبون المجد العالمي ورحمة الله في آن واحد ، لانهم كانوا يكتبون هنالك أسماءهم ونعوتهم ، ولو احسنوا لاكتفوا بذكر الاية الكريمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

ومما يذكر أن رجلاً أنشأ سبيلاً في منطقة الباشوراء كتب فوقه: « انشيء هذا السبيل ، بهمة المحسن النبيل عثمان عبد الجليل » . فدبت الغيرة في نفس رجل آخر وأنشأ سبيلاً وطلب من الحفار أن يحفر عليه : « انشيء هذا السبيل بهمة المحسن الغيور يوسف عبد الغفور » ، لكن الحفار — أصلحه الله وأصلحنا — أراد ان يصلح العبارة لتستقيم القافية، فكتب : « انشيء هذا المجرور بهمة المحسن الغيور يوسف عبد الغفور » وهكذا سلمت القافية وانعدمت العافية » .

قبضت عليه الجميزة فمات من الخوف

يروي أحد أبناء حي « عين المريسة » القصة التالية، نقلاً عن والده الذي كان من شهودها . ففي ذلك الزمان كان الناس يتفادون المرور ليلا قرب المقابر ، لما كان لها من رهبة تختلط أحيانا بالاوهام وتتفاعل مع اشاعات ظهور الجن في الظلام قبل عهد الكهرباء .

وحدث ان جماعة من شبان تلك الايام قعدوا في احدى ليالي الشتاء « يقسّطون » ويتسقطون اخر الاخبار عن ضبع مغارة عين التينة الذي كان يزور محلة عين المريسة في بعض الليالي الممطرة ، وعن الشاب الذي فقد عقله عندما علق في حبائل احدى بنات الجن لان من يعشق احدى بنات الجن يجن ، وعن شبح مخيف يلوح قرب الشاطىء في ضوء القمر — على ذمة احدى عجائز الحي — ، وعن أرواح غريبة يسمع لها حفيف وترى لها لألآت قرب مقبرة السمطية ، وما أشبه ذلك .

وكان بين الحاضرين شاب كثير الغرور هزىء بكل ما قيل ويقال ، فتحداه رفاقه ان يذهب ، إذن ، إلى جميزة مقبرة السمطية ، في تلك الساعة من الليل ويدق وتداً قرب جذع الشجرة ، ويأتيهم بغصن من أغصانها علامة ، اذا كان يعني ما يقول .

فكبرت برأس الشاب وحمل وتداً ومطرقة ومضى ولم يعد . فقلقت عليه أفكار رفاقه الذين تفقدوه في الصباح الباكر فوجدوه جثة هامدة عند جذع الشجرة ، وتبين انه دق الوتد على طرف جبته وعندما نهض لينصرف قبضت عليه الشجرة فمات هلعاً .

ويذكر الراوي اسم الشاب واسم عائلته وبعض شهود الحال .

* * *

«باب الدركة»

جاء في دائرة المعارف المطبوعة سنة ١٨٨١ ما يلي : « ولم تزل على باب«الدركة»في بيروت عتبة يظهر انها كانت لغير هذا الباب وعليها كلمات يونانية معناها : « ايها الداخل في هذا الباب افتكر بالرحمة »

يَنشُرُونَ النَاس عَلى صَنوبَر بَيرُوت

من الاصطلاحات الشائعة على ألسنة اللبنانيين ، قولهم عن امرأة ، مثلا ، حامت حولها الشكوك ولاكت سمعتها الألسنة : « نشروها على صنوبر بيروت » .

ويقول عالم ثقة ان غابة الصنوبر ، جنوبي مدينة بيروت كانت حتّى منتصف القرن العشرين ، متنزّه أهالي المدينة ، تنتشر في أفيائها مئات العائلات ، حيث تقضي أكثر ساعات النهار .

وكان القادمون إلى غابة الصنوبر يستحضرون معهم مختلف أنواع الاطعمة والاشربة ، فتتعمر الاراكيل بسرعة ويتحلق حولها الرجال الذين كانوا يتعارفون بسرعة ويتداولون شتّى الاحاديث .

كذلك النساء ، سرعان ما تلتئم حلقاتهن وترتفع الكلفة

بينهن ، فيجدن في غابة الصنوبر متنفساً لأقوالهن وأفكارهن ، لان المحاذير الاجتماعية المسيطرة ، ذلك الزمان ، على حياة وتصرفات المرأة في المدينة ، تخف كثيراً في رحاب الغاب ، وتنشط عندئذٍ الاشاعات والخبريات :

– هل سمعتن ان ابنة فلان شوهدت وحدها ليلة أمس في محلة كذا ؟

– يا عيب الشوم ، شو هالجرسه !

– وماذا فعل اخوتها بها ؟

هكذا كانت تنتشر الاخبار بين الناس ، وما زلنا نقول حتى الان ، اذا أردنا تشهير أحد الناس : « سننشره على صنوبر بيروت » .

* * *

بيروت

« بيروت » اصلها « بئيروت » ، ومعناها بالسريانية والفينيقية والعبرانية « آبار » جمع « بئر » . وذلك بسبب كثرة الآبار التي كانت في المدينة ، في قديم الزمان .

«أكل محاش ، وركب جْحاش ، ودقّ ياطبّال دقّ !»

من العقوبات المعروفة ، ذلك الزمان : الجرسه والتطويف . وكان يحدث ان يحكم القاضي على رجل او امرأة بالجرسه او بالتجريس – وكلمة « جرسة » مشتقة من كلمة « جرس » – فيوضع المحكوم في احدى الساحات ، ويأخذ أحد الرجال بيده جرساً يقرعه باستمرار ، وينادي بأعلى صوته : « فلانة او فلان فعل كذا ... » هكذا كان يتم تجريس المجرمين .

أما التطويف ، فنروي عنه القصة الطريفة التالية :

يحكى ان بدوياً قدم إلى المدينة ، لأول مرة ، وأخذ يطوف في شوارعها مشدوها بكثرة غرائبها . ورأى فيما رأى ، مطعماً والناس يدخلون ويخرجون ، فظنه مضافة لاحد زعماء المدينة حيث تكون الضيافة لوجه الله ، فدخل وأكل ما طاب له ان يأكل ، ولا سيما المحاشي التي قلما يحظى بمثلها في مضارب عشيرته .

وعندما هم بالخروج طالبه صاحب المطعم بثمن الطعام ، فاستهجن الامر ولم يفهم كيف يكون ذلك ، واذ لم يكن معه أية دراهم تسلمه رجال الشرطة وأخذوه إلى القاضي الذي حكم بتطويفه . وجيء بحمار عارٍ أركبوه عليه بالمقلوب وأمروه ان يمسك ذنب الحمار ، واستحضروا طبالاً يطبّل أمامه وراحوا يطوّفونه في شوارع المدينة ، فظنهم يقومون بتكريمه على طريقة مدينتهم .

وحدث ان بدوياً آخر مر فرأى زميله على ظهر الحمار وعرفه فناداه : « ما هذا » ؟ فقال : « أكل محاش ، وركب جحاش ، ودق يا طبال دق ! » .

* * *

بيروت ام الشرائع

انشئت مدرسة الحقوق الرومانية في بيروت سنة ٢٢٢ بعد المسيح ، وهدمها زلزال سنة ٥٥٥ ، وكانت من اهم اسباب ازدهار المدينة ، لذلك كان اباطرة الرومان يسمون بيروت في ذلك الزمان : ام الشرائع وكرسي النعم ومدينة الفقهاء ومرضعة الحياة

الكلابُ الغريبة في شوارع بيروت

المعروف ان ابراهيم باشا أخضع بيروت لحكم امراء الجبل ، فصار هؤلاء يهبطون اليها برجالهم تحف بهم ابهة السيادة التي كانت تجرح أحيانا كبرياء أبناء المدينة ، فيصبرون على مضض .

في ذلك الزمان — يقول هنري غيز في كتابه المذكور آنفاً — ان شوارع بيروت كانت تعج بالكلاب الشاردة ، التي كانت تتعارش وتتهارش باستمرار ، ولا يسلم ، غالبا ، من أذاها المارة المحايدون .

وحـــدث يوما ان احد أمراء الجبل كان ماراً في أحد الاسواق على صهوة جواده ، فتألبت عليه الكلاب ، خلفه وقدامه ، فقال : « ما أكثر الكلاب في هذه المدينة ! » فأجابه حانوتي جرحته الملاحظة : « لقد نطقتم بالحق ، يا صاحب السعادة ، ولكن تأملوا قليلا تعلموا ان أكثرها غريب ... » .





فوق : ساحة البرج قبل عهد السيارات
تحت : سوق « الهال » ، أقيم مكانه تمثال رياض الصلح

الحمار يركب على صاحبه

في تلك الايام كان الحمار واحداً من أفراد العائلة . أحيانا يكون له اسم مثل ولد من أولاد البيت ، فيتحدث الرجل عن حماره ، باسمه ، كولد من أولاده . وكان بعض أشراف بيروت ، لشدة تواضعهم يركبون « البرذون » ، وهو حيوان أقرب إلى الحمار مما هو إلى الفرس ، ومن البراذين نوع اسمه الرهوان يمشي خبباً كالجواد ولكنه لا يجاري الجواد بسرعته وعنفوانه وانتظام وقع حوافره ، وكانت أسعار الرهوان مرتفعة ، غالباً ، لرواج سوقه وندرة وجوده .

ومما يروى ان حمدي باشا والي سوريا ، الذي اشتهر بالزهد والتقوى كان يركب برذوناً أزرق ، فشاعت في عهده عادة ركوب البراذين والحمير وارتفعت أسعارها كثيرا ، فقيل في عهده:« غليت » أسعار الحمير ورخص سعر الرجال » .

أما في جبل لبنان فلم يبلغ غرام الناس بالبراذين والحمير إلى هذا الحد . بقي الحصان سيد المواقف . لذلك قال الشاعر: « ركن الامارة خيلها ورجالها » .

ويروى ان مناظرة جرت في تلك الأيام بين جبلي وبيروتي ، فعيّر الجبلي البيروتي بأنه من راكبي الحمير ، فقال البيروتي : "نحن في بيروت يركب الرجل منّا على حماره ، ولكن لم يحصل أبداً عندنا ان ركب الحمار على صاحبه » .

وفي الواقع ، لم يكن الرجل العادي في بيروت ، يشعر بثقل وطأة حكامه عليه ، لأنهم لم يكونوا امراء يتوارثون الامارة فيتدخلون لذلك في كل شاردة وواردة لتثبيت امارتهم . انهم كانوا غرباء ، اتراكاً او مصريين ، كل همهم بعض المكاسب المادية .

* * *

« أشتهي أن يدهمني الموت وقلمي بين أناملي »

يُعتبر الأب « هنري لامنس » من اكبر العلماء المستشرقين ، فقد ألّف ونشر عشرات الكتب بالعربية والفرنسية ، وتولى إدارة مجلة للشرق وجريدة البشير ، في بيروت عدة سنوات ، وكتب مئات المقالات والدراسات . وفي أواخر أيامه اصابه شلل في يده اليمنى فقال : « لا اعتراض على ارادة الله ، لكنني كنت أشتهي أن يدهمني الموت وقلمي بين اناملي » .

« بَدّك تنام حَدّي ، وْلَشُو المخـَدّه »

كان عدد سكان بيروت سنة ١٨٣٠ ثمانية آلاف نسمة فقط . وقد أجمع علماء التاريخ ان من أهم أسباب تقدم بيروت وازدهارها ، ان أهالي بيروت كانوا ، دائما ، منفتحين في وجه الاجانب . يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه « لبنان في التاريخ » ان عدد العائلات الاوروبية ، التي كانت تعيش في بيروت سنة ١٨٤٠ مئة عائلة تقريباً ، وان الاوروبيين كانوا يتنقلون في شوارع المدينة بكل ثقة واطمئنان . وكانت أسواق بيروت تزخر بالاروام والمالطيين والايطاليين ، حتى ان الحمامات العامة كانت فيها غرف خاصة بالاجانب . لذلك استقرت الارساليات الاجنبية في بيروت ، فكانت مدارسها ومطبوعاتها مركز اشعاع في دياجير تلك الايام .

ومن قصص ذلك الزمان ان سيدة أجنبية كان عندها خادم بيروتي شاب أخذته معها في أحد الايام إلى الجبل ، وفي المساء

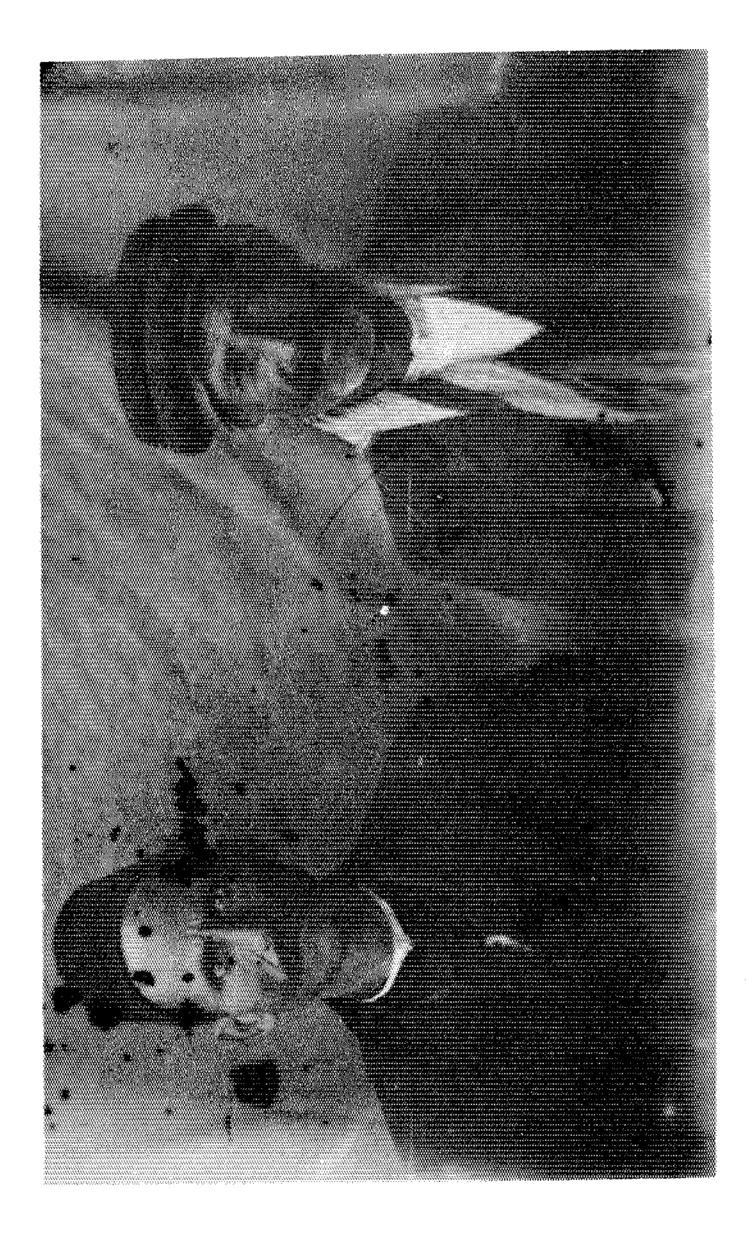
آوت إلى سريرها ولم يكن هنالك فراش آخر فقبع الخادم وانطوى على نفسه في مكان قريب . فنادته وقالت ان الجو بارد ولن يكون بامكانه أن يقضي الليل كذلك ، لذلك لا بأس اذا تمدد قربها على السرير . فتردد الشاب برهة ثم قال : « عندي أصدقاء هنا في مكان قريب فاسمحي لي أن أذهب واجلب من عندهم وسادة وأعود حالاً » .

فلم تفهم السيدة مرامه وقالت : « ولماذا تريد ان تجلب الوسادة ؟ » . قال : « لأضعها بيني وبينك ، الدنيا فيها حلال وحرام » . فقالت : « إذن إذهب ونم عند أصدقائك . »

* * *

جر المياه إلى بيروت

سنة ١٩٠٢ اعطت الحكومة العثمانية امتيازا للمهندس الفرنسي « تونين » ، لجر المياه إلى بيروت من نهر الكلب ، على ان يتم توزيعها على الشكل التالي : ٢٥٠ الف ليتر توزع على خمس برك عمومية ، و ١٠٠ الف ليتر توزع على ال ١٧ جامعا وال ٢٠ كنيسة وكنيساً وعلى دور الحكومة ، وذلك لقاء مبلغ سنوي مقطوع مقداره ٦٠ الف فرنك .



طرابيش وتقاليد

تمّت فتوحات العثمانيين على أيدي « الانكشارية » ، وقامت عليهم امجاد سلاطين الاستانة . وكلمة « انكشاري » تركية أصلها « يني تشري » أي جندي جديد . والانكشاري – كما كان يقول أجدادنا – لا يعرف ربه الذي خلقه ، لان القيم الاخلاقية لم يكن لها وجود عنده .

وفي الواقع كان العثمانيون يجمعون أبناء العبيد وسبايا الحروب والايتام ، ويربّونهم تربية خاصة ، بحيث ينشأ الواحد منهم دون أن يكون له أي ارتباط بأهل او دين او عنصر ، فلا يدين بالولاء الا للسلطان وحده فقط . كان هؤلاء هم الانكشاريه عماد السلطنة العثمانية ، منذ قيامها ، حتى جمعهم أخيراً السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ في ثكناتهم ، وأمر حرسه الخاص ان يقصفوهم بالمدافع ، بدون رحمة ، فأبادهم عن بكرة أبيهم ، وأراح الناس من شرورهم .

السلطان محمود هذا ، لقبته رعيته بالسلطان الكافر . قيل انه أراد ان يحكم الشرق بمفاهيم الغرب ، فأحدث تنظيمات جديدة في جميع مرافق الدولة وفتح أبوابها أمام الخبراء الاوروبيين .

ومما يذكر ان السلطان محمود هذا هو أول سلطان عثماني خلع العمامة المغربية ولبس الطربوش النمساوي الاحمر . وهو لباس أوروبي، اختص النمساويون بلبسه وصنعه والاتجار به في ذلك الزمان . ومنذئذ صار الطربوش النمساوي الاحمر لباس الراس الرسمي ، لا في السلطنة العثمانية فحسب ، بل في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

ومع غروب شمس القرن الماضي اختفى الطربوش، تدريجيا ، من اوروبا ، فيما بقي الاتراك يعتبرونه رمز كرامتهم ، حتى جاء مصطفى كمال باشا ، الذي أراد كذلك ان يحكم تركيا بمفاهيم اوروبية حديثة ، فألغى الطربوش ، ليمحي صورة سلاطين بني عثمان من ذاكرة أبناء وطنه .

ومعروف ان ابراهيم باشا المصري ، الذي غزا بلادنا سنة ١٨٣١ هو الذي عمم لبس الطربوش ، عندنا ، عوضا عن العمامة ، لان والده محمد علي باشا كان قد لبس الطربوش الاوروبي قبل ذلك — تقرباً من شعوب اوروبا — وكان أول من لبسه في بلادنا الامير بشير الشهابي الكبير سنة ١٨٣٨ . وأصل الكلمة « سربوس » ومعناها بالتركية غطاء الرأس .

* * *

ويروى انه ، عندما اختلفت النمسا وتركيا ، في مطلع القرن الحالي ، على مقاطعتي البوسنه والهرسك ، تتالت الاخبار عن تطاولات نمساوية على مقام السلطنة العثمانية ، وقلقت الافكار وهاجت الخواطر ، وعقد اجتماع شعبي كبير في ساحة البرج في بيروت ، توالى على الكلام فيه عدد من الزعماء والشعراء ، إلى أن تقدم أخيراً أبو أحمد الجاك ، أحد كبار قبضايات ذلك الزمان ، وطربوشه بيده ، وقال : « راح نقضّيها حكي بحكي » ، ولوّح بطربوشه وقال : « نمساوي قليل الشرف ، ما بيحطو عاراسو الا كل قليل الشرف » . وطرح الطربوش على الأرض ، وتبعه عدد من القبضايات فألقوا بطرابيشهم وأخذوا يشتمون النمسا وكل من يلبس طرابيشها . فجاراهم بعض الحاضرين ، فيما انسحب الآخرون ، وانفض الاجتماع ، حسب العادة ، « حكي بحكي » .

ومما يروى ان احد القبضايات رجع بعدئذٍ إلى بيته ، حاسر الرأس بدون طربوش ، وكان ذلك من الامور المستهجنة جداً ، فاخذت زوجته تضحك عليه ، لان الطربوش كان مثل الشارب ، من مقومات الرجولة ، فعاد إلى حيث ترك زملاءَه ، وقال لهم : « العاقل يعقل ! تاليها شماته » .

لكي يبقى الرجل ناصع الجبين

وكانت هنالك اصول وتقاليد يتّم لبس الطربوش بموجبها .

فهو يوضع غالباً بشكل افقي فوق الرأس . لكن بعض القبضايات كانوا يميلون طرابيشهم إلى الوراء ، بحيث تظهر نواصي شعرهم فوق جباههم [1] . وكان اظهار الناصية من امارات الرجولة ، لان الناصية رمز قوة الرجل ، فان قبض رجل على ناصية الآخر ، فقد ظفر به ، ومن هنا نشأت التورية في اللغة : « وقبض على ناصية الامر » .

ويقال ان الشاب العازب كان يحني طربوشه ذات الشمال ، فاذا تزوج حناه ذات اليمين . اما تنكيس الطربوش إلى الامام فعلامة حزن او ذل . فاذا لحقت بالرجل اهانة ، او نسبت إلى حريمه الخيانة ، او اقترف ابنه مثلا ، اعمالا شائنة ، نكّس طربوشه فوق جبينه في مجالس الرجال .

فالجبين ، عند الشعوب السامية هو مركز الكرامة في جسم الانسان ، لذلك يحك الرجل جبينه قبل البت بموضوع يتعلق بكرامته ، واذا اتهم مثلا بجرم سرقة وثبتت براءته في ما بعد نقول انه خرج « ناصع الجبين » . وكانوا يعتقدون ان الرجل اذا خجل تندى جبينه بعرق الكرامة ، لذلك نقول مثلاً : « وهذا مما تندى له الجباه خجلاً » . كما نتحدث احيانا عما نسمّيه « ماء الجبين » في معرض الكلام عن الكرامة .

وكانت الشعوب السامية تعصب جباهها بعصائب سوداء اذا

---

(١) من صرعات ذلك الزمان ان « الجهلان » كان يميل شرابة طربوشه إلى الامام فيقال عنه : « عقلاتو براس طربوشو » .

منيت بهزيمة او اذا غضبت عليها الآلهة . وما زالت المرأة في بعض القرى اللبنانية ، تعصب جبينها بعصابة سوداء اذا قتل زوجها مثلاً . كما كانوا يصمون بعض المجرمين بوصمات خاصة على جباههم ، ولذلك بقينا نقول ، حتّى الان ، عن اي عمل شائن انه وصمة عار على جبين الانسانية . وهكذا كان الرجل يخبىء جبينه بطربوشه اذا لحقته وصمة عار .

* * *

ومما يروى ان رجلاً اعتاد ان يحضر كل صباح إلى احد مقاهي المدينة ليأخذ « نفس تنبك » مع جماعة من اصدقائه . وحدث في احد الايام ، وفيما هو جالس بين جلسائه ، ان تقدم شيخ طاعن في السن من الوراء وامسك بطربوش الرجل ونكسه فوق جبينه ، فلم يبال الرجل بما حدث وظنه مزاحاً .

وفي اليوم التالي حضر ، حسب جاري عادته ، وجلس بين جماعته ، فنهض الشيخ نفسه من مكانه واقترب وامسك بطربوش الرجل ونكّسه فوق جبينه ، فاستدرك هذا حالاً وقام واعتذر بحجة انه نسي شيئاً في بيته ، وتوجه حالا اليه فوجد زوجته مع رجل غريب في وضع مريب ، وانقضّ عليها وخنقها .

وعندما هدأ روعه دعا اليه اهله واهلها ، وكاشفهم بالواقع ، فعقدوا الراي على لفلفة الفضيحة ، وستر الله على من ستر لأن :

« غسل العار مش معيار » ، ودفنت المرأة بكل اعتبار .

وبعد ايام عاود الرجل سيرته ، فنزل وقعد مكانه في المقهى ، منكساً طربوشه حزناً على زوجته ، فما كان من الشيخ نفسه الا ان تقدم واجلس طربوش الرجل ، بحيث ظهر جبينه مع قسم من ناصيته ، ورجع إلى مكانه .

وهكذا بقي الرجل ناصع الجبين !

* * *

عفواً من السيدة عائشة بكار

خلال احداث سنة ١٩٥٨ وقعت يوماً مناوشة مسلحة في محلة عائشة بكار ، وهي حي معروف في بيروت . وكانت يومئذٍ ، احدى الاذاعات العربية مهتمة بما يحدث في لبنان ، اكثر من اللازم ، فاذاعت ان جماعة من الخونة المارقين اعتدوا على السيدة المصون عائشة بكار ـ كذا ـ واستنكرت الاذاعة المذكورة هذا العمل الاثيم .

« مَنْ سَتَرَ اَعْرَاضَ النَاسْ سَتَرَ اللهُ ذنوبَهُ »

في مجتمعات بيروت القديمة قصص شعبية ذات ملامح دينية ومغازٍ تربوية ، ربما كان المتقدمون يروونها على مسامع ابنائهم ليغرسوا بذور الشرف في نفوسهم ، ومنها القصة التالية :

عاش في بيروت ، قبيل منتصف القرن الماضي شيخ بار اشتهر بحكمته وصواب مشورته ، يقصده الناس مسترشدين بنور فطنته .

وفي ذات مساء دخل شقي مشهور ومعه عصا غليظة وقال : « اسألك ! فقل لي ! بذمّتي عشرون قتيلاً ، فهل الجنة مثواي ام جهنم ؟ » .

فتريث الشيخ قليلا ، ان قال « الجنة » كذب . وان قال « جهنم » ربما تناوله الرجل بضربة عصا ، اذ ماذا يضيره ان

اصبح عدد ضحاياه واحداً وعشرين . واخيراً قال : « الله رحمن رحيم ، يعرف عباده ولا يعرف احد مراده ، ولكن والدي كان يقول: « من اراد ان يعرف مثواه في الآخرة عليه ان يغرس عصاً يابسة في تربة طريئة ، فاذا اخضرت ونبتت كان مثواه الجنة ، والاّ فلا » .

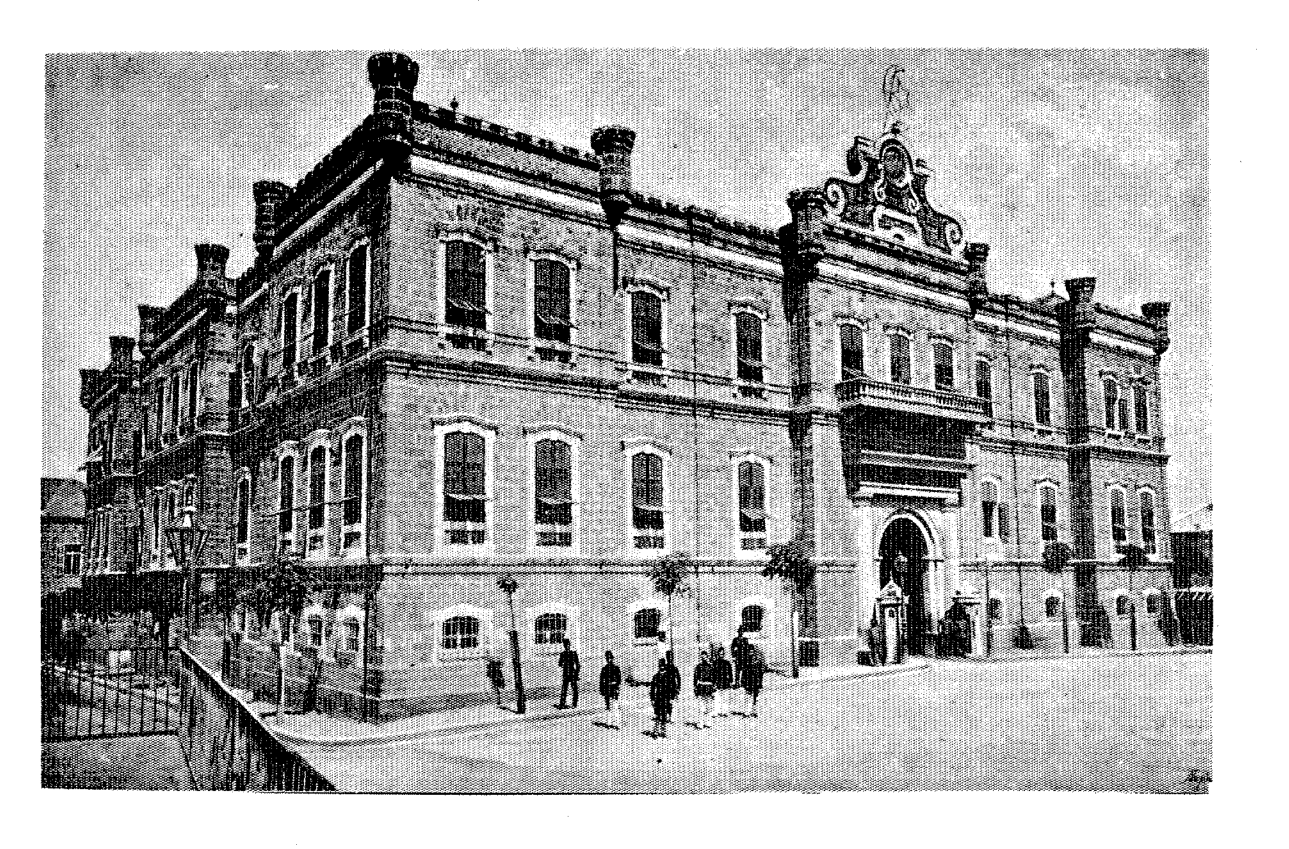
فأدار الرجل ظهره ومضى . وقادته خطاه إلى مقبرة حيث رأى شاباً يحفر قبراً وينتشل منه جثة فتاة مدفونة لساعتها ، فيمزق كفنها ويقول لها : « امتنعتِ عليَّ حيّة سأنال وطري منك ميتة » .

فاحتدمت دماء الشهامة في عروق الشقي وانقضّ بعصاه على الشاب فصرعه ، وستر جثة الفتاة بما تبقى من كفنها واعادها إلى القبر .

ثم غرس عصاه في تربة القبر وجلس يستريح ، وحانت منه التفاتة فاذا بالعصا تخضر ، واذا باوراق ندية تتفتح على جنباتها . فقام ومشى واخبر الشيخ بما حدث ، وروى له قصة الشاب والفتاة ، فاغرورقت عينا الشيخ وقال : « من ستر اعراض الناس ستر الله ذنوبه » (١)

---

(١) كلمة « ستر » لها معنى خاص عند العامة من اللبنانيين ، فالرجل يقول عن صهره : « هذا ساتر عرضي » . واذا تكلم الرجل مع امرأة قال لها : « يا مستورة » . واذا تزوجت الفتاة قيل : « انها انسترت » . واذا سألنا رجلا عن حاله اجاب : « مستورين او ساترها الله » .



أحمد جمال باشا خارجا من سراي البرج ، مع حاشيته وقد خلت ساحة البرج من المارة

بين المصيطبة والأشرفيّة

في القرن الماضي وما قبله كان المسافر اذا مر في احدى القرى يسأل عن منزول القرية فينزل فيه . والمنزول ، غالباً ، بيت من بيوت القرية ينزل فيه الغرباء ، على ان يتعاون ابناء القرية في تأمين طعام النزلاء وعليق دوابهم ، حفظاً لسمعة قريتهم . والمنزول غير المضافة الموجودة في بيوت الزعماء ، حيث يضيفون الناس كما تقضي اصول الزعامة . اما في المدن فينزل الغرباء في الخانات ، حيث لا توجد منازيل ولا مضافات .

في ذلك الزمان ، كانت قرية « المصيطبة » تبعد عن مدينة بيروت مشي ربع ساعة ، انها كانت اقرب قرية إلى مدينة بيروت . وقد اشتهرت بمنزولها الذي كان اسمه منزول السلاطين ، لان الامراء وكبار القادة كانوا ينزلون فيه . وكلمة مصيطبة – تصغير مصطبة ، وتكتب مسطبة كذلك – معناها « منزول » قاموسيا وعاميا ، وقد نسي الناس معناها هذا ، لعدم

حاجتهم إلى استعماله ، وذلك عندما اختفت المنازيل من القرى اواخر القرن الماضي .

وكان الواقف على سطوح المصيطبة يرى بيوت قرية الاشرفية التي يقال انها سميت بذلك نسبة إلى الملك الاشرف بن الملك قلاوون ، الذي حارب الصليبيين وانتزع مدينة بيروت من يدهم ، وجعل مقره في تلك المحلّة فصار اسمها « الاشرفية » إلى يومنا هذا .

وبين المصيطبة والاشرفية ، في المكان المعروف الان باسم راس النبع ، كان ينساب جدول صغير باتجاه قرية الكراويه فالى ساحة الدركاه داخل مدينة بيروت . وكانت تقوم هنالك خلافات ومنازعات دائمة على ملكية المياه وعلى سقاية المواشي والاراضي بين ابناء المصيطبة والاشرفية .

وعيون الماء في القرى ، تشتهر غالباً بشيئين : المشاجرات ومطارحات الغرام ، وقد كان للجن دور في حياة الناس . يقول معمر راوية ان جنيّات كانت تأتي عارية من الشرق وتغتسل ليلا في مياه راس النبع ، وتقوم احيانا « بولدنة حرام » مع شبان المحلة . « وولدنة الحرام » هذه ، ان تأتي الجنيّة بحركات اغراء مثيرة ، فاذا هم الرجل ، قهقهت واختفت — اذن هذه هي ولدنة الحرام — لكن الاهم ان جماعة الجن كانوا « يُجـّمشون » احيانا على المارين ليلا في المكان ليوقعوا الفتنة بين الناس .

أمّةُ الثقَلَين

وحديث جنيّات راس النبع يجرنا إلى الحديث عن الجن في بيروت بصورة عامة . فقد لاحظنا ان كثيرين من الناس ما زالوا حتّى يومنا هذا يتحاشون استعمال كلمة « جن » في حديثهم عنه ، ويشيرون اليه بكلمة « جماعة » . فاذا قالوا مثلا : « واحدة من الجماعة » ، يتبادر إلى الذهن انهم يعنون احدى النساء الجانحات ، فيشبهونها باحدى بنات الجن . وسوء الظن هذا باخلاق بنات الجن ناتج عن ظهورهن عاريات في ضوء القمر ، وغير محتشمات كما تقضي تقاليد المجتمع . ولم يقم بين آبائنا من يتجرأ ويشكر بنات الجن على اشاعة الجمال بين الناس بهذه الطريقة .

ولم نجد كذلك بين رواة الاخبار من يذكر مأثرة واحدة لجماعة الجن ، فهم قوم اشرار يحاولون دائماً ان يوقعوا الاذى بالناس ، ولكن الله رؤوف رحيم ، فمجرد ذكر اسمه يكفي لطرد الجن وينجينا من التجربة .

لكن من يقرأ اساطير بعض الشعوب يجد عندهم جماعات من الجن ذوات اخلاق حميدة وصفات مجيدة ، فاذا وجدت احدى جنياتهم ، مثلا ، طفلا يبكي عطفت عليه ، واذا التقت رجلا تائها هدته سواء السبيل . وفي آداب الغرب قصائد فريدة تتغنى بجمال بنات الجن ، وعندما ينام الطفل هنالك تروي له امه قبل النوم ، قصص الجن فينام قرير العين . في حين نخيف نحن اطفالنا بالجن والغول والتابعة والصوابي وغير ذلك من الخلائق الموجودة حولنا تسمع اصواتنا وتحصي حركاتنا وسكناتنا ، وتعيش احيانا داخل ابوابنا .

ويحدث ان تضيع احدى عجائزنا مقص الخياطة مثلا ، فلا تهتم بالبحث عنه كثيراً وتقول : « الجماعة استعاروه » ، وفي المساء قد تجده في احد الادراج فتشكر الله لان الجماعة اعادوا المقص اليها باذنه تعالى .

وانا اعرف شخصياً سيدة من عائلة بيروتية محترمة ، اذا ارادت ان تصب ماء حاراً في مسقط مياه المجلى تقول مستدركة : « يا جماعة لا تآذونا ولا نآذيكم » ، اذ ان مساقط المياه هي من مكامن الجن ، وهكذا ، اقصى ما نطمح اليه معاهدة حسن جوار وعدم اعتداء بيننا وبين « الجماعة » .

ومما يذكر ان مدينة بيروت انيرت بالكهرباء سنة ١٩٠٢ وكان يحدث في ذلك الوقت ان تشاهد في الصباح عدة مصابيح كهربائية في الشارع محطمة ، فيقال ان « الجماعة » حطموها ليستطيعوا أن يخرجوا من مخابئهم في الظلام ، لأن الله خلق الليل للجن مثلما خلق النهار للانس .

حِيصُوبِيْصُو

ومن طرائف قصص الجن ان رجلا احدب استوطى حيطه صبيان الحي واخذوا يعيرونه كلما مر بهم : « يا بو حردبّه بوبعه ! يا بو حردبّه بوبعه » . فصار يتجنب المرور في الازقة المكتظة بالاولاد ، ويسلك المعابير المظلمة بين اشجار الصبيّر والتين والجميز . وحدث انه ضل طريقه في احدى الليالي ووصل إلى حيث كان جماعة الجن يقيمون عرساً لابن ملكهم وهم يحدون : « حيصو بيصو ، والعريس لابس قميصو » . ويكررون هذه الردة اذ كانوا لا يعرفون سواها .

وكان « بو حردبّه » هذا شاعراً فهتف قائلاً : « الاربعا والخميسو » ، فلقيت الردة استحسانا عند ملك الجن وسأله ان يطلب ويتمنى ، فطلب ان يرتاح من الحردبة الموجودة على ظهره ، فانتزعها ملك الجن من ظهر الرجل ووضعها في

« قرقارة » احدى الاشجار ، وعاد الرجل مسروراً واخبر بما جرى معه .

وحدث ان احدب آخر من رجال المحلة سمع بما حدث ، فتوجه تواً إلى حيث كان جماعة الجن ما زالوا في همكة العرس وهم يحدون : « حيصو بيصو ، والعريس لابس قميصو ، الاربعا والخميسو » . فصاح قائلا : « الجمعة والسبتو » . فانتهره ملك الجن قائلاً : « يا قليل الذوق كسرت القافية » ، وتناول الحردبة من قرقارة الشجرة والصقها في ظهر الرجل ، فصار عنده حردبتان .

وهذه القصة تدل ان جماعة الجن عندنا ، هم مثلنا اصحاب مزاج يطربهم رنين القوافي ، فيصح بذلك ما جاء في كتبنا القديمة اننا نؤلف مع جماعة الجن امة واحدة هي « امة الثقلين » والله اعلم .

حديث خرافة

هذا وتزخر كتبنا القديمة بقصص الجن فنقول انها من « الخرافات » ، وقليلون منا يعرفون الان اصل هذه الكلمة . يقول الميداني في « مجمع الامثال » ان رجلا كان اسمه « خرافة » من قبيلة عذرة تزوج امرأة من نساء الجن وعاش مدة مع عشيرتها . ثم رجع إلى أهله واخذ يروي من قصص الجن ما لا

يقبله العقل ، فصاروا يقولون عن كل ما هو غير معقول « حديث خرافة » . ثم ظهرت امرأة بعد ذلك اسمها ام عمرو كانت تدعي معرفة الغيب ، فقال الناس لها : « هذا حديث خرافة يا ام عمرو » . وفي ذلك يقول ابو العلاء المعري:

عزفتَ عن المدام وانت حـــيٌ
لما وعدوك من لبنٍ وخمرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثم حشـــرٌ
حديث خرافة يا أم عمروِ

* * *

تبيع دموعها لتحفظ ماء وجهها

بينما كان المرسل الاميركي عالي سميث ينقب ارض حديقته في بيروت سنة ١٨٤٠ ، وجد فيها عدة نواويس وتوابيت فخارية ، ضمنها أوعية زجاجية لحفظ دموع النادبات ويقول عالي سميث في مذكراته ان المرأة في بيروت كانت تبيع دموعها لتحفظ ماء وجهها .

وجه لبنان

اميركي « متلبنن » أعرب عن حزنه الشديد ، بسبب انتشار محلات « السوبر ماركت » في بيروت ، لأنها تقضي على اخلاقية المجاملات ، فتنعدم فيها انسانية التعامل بين الناس . اما الدكان، فيستقبلك صاحبه بالترحاب ويسألك عن صحتك وعن أولادك ، ويروي لك قصة عن زوجته او نكتة عن جاره ، ولا يبخل عليك بتنبوآته عن الطقس . واذا أردت ان تمد معه حديثاً ، وقف وبيده بطيخة مثلاً ، حتى ينتهي حديثك ، فيثني على ذكائك ، وربما تبرع لك اخيراً بحكمة او بنصيحة او بوصفة طبية ضد الشيخوخة ومرض عدم الامكان .

القسم الثالث

لِكُلِّ مَثَلٍ قِصّة

« المثل نبي » — روي ان الله تعالى بعث نبياً لضرب الأمثال من كتاب خطط جبل عامل

« من هالك لمالك لقباض الارواح »

نقول ، عندما ينتقل المرء من سيء إلى أسوأ إلى ما هو أشد سوءاً :« من هالك لمالك لقباض الارواح » . وقد سألنا عالماً كبيراً عن أساس هذا المثل ، فقال ، ان « مالكاً » هذا ، عند العرب ، هو خازن النار ، كما ان الملاك رضوان هو خازن الجنة ، اي حارسها . وقباض الارواح هو ابليس . أما الهالك فهو الخاطىء الذي يغري الناس بارتكاب المعاصي ، وهكذا فان من يقع في حبائله ينتقل ، حتماً ، من هالك لمالك لقباض الارواح ، اي انه ينتهي في جهنم وبئس المصير .

زبون العوافي

حدث ان مكارياً معه حمار محمّل دقيقاً ، مر في طريق موحلة وزلقت رجل الحمار ووقع في الوحل ، فقبض المكاري على ذيل الحمار يحاول انهاضه . وصدف ان فلاحاً يفلح في مكان قريب رأى ما حدث فترك عمله وجاء مسرعاً واخذ يشد بعنق الحمار ، فيما قدم رجل ثالث من ناحية اخرى ، ثم رجل رابع ، واخذوا جميعاً يحاولون رفع الحمار بحمل الدقيق .

واذا بشاب يمر وهو « يرطّ » بيديه ، فقال : « العوافي » .. وتابع سيره ، ثم التفت وقال : « ما حدا بيرد السلام ، انقطعت المروّه من روس الرجال ! » .

يقال ان الناس اصطلحوا ، على اساس هذه القصة ، ان يقولوا عن كل رجل قليل النخوة ، عديم المروءة ، انه « زبون العوافي » .

لكلّ مثلٍ قصّة

تزخر كتابات اللبنانيين واحاديثهم بالامثال العربية القديمة التي ما زلنا نستعملها في مناسباتنا ونستشهد بها في كلامنا ، دون ان نهتم بمعرفة اساس كل منها ، فنقول : اختلط الحابل بالنابل — بعد اللتيا والتي — كأن على رؤوسهم الطير — وافق شن طبقة — مكره اخاك لابطل — لا في العير ولا في النفير — في الصيف ضيعت اللبن — رجع بخفي حنين — اليوم خمر وغداً امر — وغير ذلك . مع ان كل مثل من هذه الامثال ، وسواها ، من الامثال العربية له قصة يمكن الرجوع اليها في كتاب مجمع الامثال او سواه من الكتب التي عالجت هذا الموضوع .

وهنالك امثال لبنانية كثيرة غير معروفة الا في لبنان، وربما في بعض انحاء سوريا وفلسطين ، وقد عني بجمعها اكثر من باحث لبناني فلا يخشى اذن من ضياعها . لكن يبدو من تراكيب بعض الامثال انها مبنية على أساس قصة شعبية او حادث تاريخي

او تلفيقة شخصية ، ومع الايام ضاعت هذه القصص والحوادث والتلفيقات ، وبقيت الامثال التي انبثقت عنها ، على السنة الناس .

وقد فطنت منذ عدة سنوات إلى اهمية جمع القصص والاخبار والطرائف والمأثورات التي يتألف منها تاريخنا الشعبي الحديث ، واكتشفت خلال عملي هذا بعض القصص التي بنيت على اساسها بعض الامثال اللبنانية ، ادرجها في ما يلي، لا كحقائق تاريخية راهنة، بل كطرائف متواترة على السنة الناس .

* * *

جنود مجهولون

قد يكون في مقدور بحّاثة متفرّغ ان يتلقف عن السنة الناس مجموعة ثمينة من القصص والطرائف والامثال والمأثورات التي يتألف منها التراث الشعبي اللبناني . لكن تصعب جداً معرفة اسماء الرجال الذين صنّفوها واختفت ملامح شخصياتهم من ذاكرة المجتمع فصاروا جنودا مجهولين .

« قاضي الأولاد شنق حاله »(١)

لكل قصة ذنب لا تستقيم بدونه واطيب ما في القصة ذنبها . يقال ان المرأة ، في قديم الزمان ، كان لها ذنب جميل تتباهى به ، فأكله الرجل ، كما في احدى الاساطير . والواقع ان بعض المخلوقات تتباهى بأذنابها كالديك والطاووس والسنجاب. كذلك اكثر الحيوانات تقل اثمانها اذ قطعت اذنابها . ما عدا الكلب الازعر والجحش « الكر » الذكر ، الذي كانوا — لحكمة نجهلها الان — يقطعون ذنبه لدى ولادته ، اما الانثى فلا . ومن هنا القول المأثور « ذنب كر لا بينفع ولا بيضر » .

ومما يحكى ان رجلاً كلما روى قصة تعثر عند نهايتها . لم يكن يحسن حبك خاتمتها ، فيقول له السامعون : « قصتك بلا ذنب » حتى اصيب اخيراً بعقدة الذنب .

---

(١) نشرت في ملحق النهار بتاريخ ١ نيسان ١٩٧٣

وحدث ان صاحبنا هذا ، وجد يوماً ذنب كر مقطوعاً ومرمياً في الطريق ، فالتقطه وخبأه في عبّه ، ومضى تواً إلى ساحة القرية حيث يجتمع « اللوطعجية » ، وجلس ازاءهم وقال : « سأقص الان عليكم قصة طريفة جداً » :

ـ دخلت امرأة مسرعة على هارون الرشيد وقالت له : « هل ذهبت إلى مالطة ؟ » فتعجب الرشيد من قلة طعمة السؤال ، وقال : « كلا » .

فردت المرأة : « ولا انا ذهبت إلى مالطة » . وخرجت .

وتناول صاحبنا ، عندئذ ، ذنب الكر من عبّه وقال : « وهذا ذنب القصة ! » فقالوا : « كانت قصصك بلا ذنب فصارت بلا طعمة » .

* * *

كان لا بد من هذه المقدمة للتأكيد على اهمية ذنب القصة . ففي نطاق اهتمامي ، خلال سنوات ، بجمع القصص الشعبية ، ولا سيما ما اقترن منها بقول مأثور او بمثل شعبي مشهور ، تجمع عندي عدد وافر من القصص غير المكتملة ، التي تحتاج إلى التقصيّات ، ومنها قصة مرتبطة بالمثل المعروف : « قاضي الاولاد شنق حالو » .

ـ كان لأحد ملوك الزمان نساء متعددات ولكل زوجة اولاد يلعبون غالباً في حديقة القصر فيتشاجرون لأتفه الاسباب

فتأتي امهاتهم ، ويختلط صراخ الاولاد بصياح النساء ، فيضطر الملك إلى التدخل وإلى اهمال شؤون العرش ، لاجراء المصالحات بين اولاده ، وتطييب خواطر زوجاته . لذلك تخلّى لكبار معاونيه عن بعض صلاحياته ، ولا سيما قاضي القضاة الذي خوّله ان يقضي ويمضي كما يشاء .

وفي احد الايام جاء من يقول للملك ان قاضي القضاة «يعمل السبعة وذمتها » ولا يتقي الله ، حتى انه شنق ثلاثة رجال ، في يوم واحد . فاستدعاه حالا وسأله فاجاب : « نعم شنقت ثلاثة رجال » :

– الاول ، لأنه قتل اباه ، فقال الملك : حسنا فعلت .

– والثاني ، لانه مر حيث شنقنا الرجل الاول وقال : « يرحمه الله » .

فقال الملك : « وهل شنقت الرجل لهذا السبب » ؟، فرد : « اجل ، لانه شكك في عدالة الله ، اذ كيف يمكن الله ان يرحم من يقتل اباه » .

– والثالث ، لانه جاء واخبرنا ان الرجل الثاني قال عن الرجل الاول « يرحمه الله » . فقال الملك : « ويحك ! وهل هذا ما يوجب الشنق ؟ » رد : « طبعاً ، لانه شكك بعدالتنا . اذ لو كان مؤمناً بعدالتنا لما خشي ان ينقضها الله بعدالته فيرحم من يقتل اباه » .

فأعجب الملك ببداهة القاضي ، وكان يفكر في طريقة لتنظيم شؤون اولاده ، فيتفرغ إلى سياسة زوجاته ، فقال له : « اذن » ساعهد اليك ، موقتاً ، في امور اولادي ترعاهم بعنايتك وتحكم بينهم بحكمتك » .

يقول الراوي ان القاضي هذا ، قبل ان تغيب شمس ذلك النهار شنق نفسه تحت احدى اشجار الحديقة . ولكن مما يؤسف له حقاً ، ان ذاكرة الراوي نسيت ما تبقى من القصة . اذ محت الايام من صفحاتها الاسباب التي شنق القاضي نفسه من اجلها حتى قيل ، ذلك الزمان : « قاضي الأولاد شنق حالو » .

ويخشى ان تبقى القصة بلا ذنب ، فعلى من يعرف ذنب هذه القصة ان يتكرم به علينا : ذنب اصلي ، ذنب « عيره » ، ذنب كر ، كيفما تيسر ، شرط ان ينفع ولا يضر .

« مِثل قاضي معزُول »

من الاصطلاحات المعروفة ، اننا اذا سمعنا رجلا كثير الكلام — وخصوصاً اذا كان يتكلم بلهجة الامر — نقول : « متل قاضي معزول » . ويروي احد معمري بيروت قصة مزعومة لهذا القول المأثور ، سبق « لهنري غيز » ان روى قصة اخرى مشابهة لها ، في كتابه « بيروت ولبنان » المطبوع سنة ١٨٣٧ .

– اشترى رجل كمية من الاباريق المتنوعة الاشكال والاحجام ، وملأها ماء وصفّها على متكأ امام مدخل الجامع ، ليستعملها المصلون عند الوضوء واتخذ له مجلساً بالقرب منها وجعل يوزع اوامره على القادمين :

– خذ الابريق المستطيل

– دع هذا الابريق وخذ سواه

– انتظر لاعطيك احد الاباريق

وهكذا دواليك ، بصورة متواصلة ، طوال عدة اسابيع ، وكان القادمون يتساءلون عما دفع هذا الرجل إلى القيام بهذه المهمة ، دون ان يكون له اي فائدة منها سوى الشعور بلذة الأمر والنهي ، وفهموا اخيراً انه « قاضي معزول » .

* * *

«قابْرين الشيخ زنكي سَوَا»

اتفق ان رجلين فقيرين ارادا ان يقوما بفريضة الحج ، فتشاركا على شراء حمار كانا يتناوبان الركوب عليه ذهاباً واياباً ، وحدث في طريق العودة ، ان مات الحمار ــ وكانا قد اطلقا عليه اسم « زنكي » ــ فحفرا حفرة بجانب الطريق دفناه فيها .

وما ان فرغا من دفنه حتّى مر بهما جماعة من الحجاج وسألوا عمن يدفنان فقالا : « اننا ندفن الشيخ زنكي هنا ، وهو رجل بار تقي نقي صاحب كرامات ، وعندما وصل إلى هذا المكان شعر بدنو اجله ، فطلب منا ، ونحن من اتباعه ، ان ندفنه هنا ، وان نبني له ضريحاً ومزاراً في هــذا المكان ، وان نجمع أكلافهما من صدقات الحجاج ، وها نحن قد بدأنا عملنا الان .

فما كان من الحجاج الا ان تبرعوا بما جادت به نفوسهم ، وتكرر قدوم الحجاج وتكررت التبرعات ، فبنى بها الرجلان

مقاماً على اسم الشيخ زنكي ، واخذ الناس يتوافدون على زيارته وتقديم النذور اليه ، فجمع الرجلان ثروة طائلة وعاشا وقتاً طويلا باحسن حال .

ثم استأذن احدهما رفيقه وذهب ليتفقد عائلته ، وعندما رجع طلب حسابا عن التبرعات التي جاءت في غيابه ، وعندما اطلع عليها اعلن شكه بأمانة رفيقه ، فما كان من هذا الا ان قال : « اقسم لك بالشيخ زنكي ان هذا كل ما قبضته في غيابك » .

فصاح به الرجل الاخر : "ويحك ! اتقسم بالشيخ زنكي وهو حمار ابن حمار وقد قبرناه معاً » .

* * *

شيح بريح

« الشيح » نبات يوضع على اطباق دود الحرير ليبني شرانقه عليه ، ومن صفاته انه يصبح خفيفاً جداً عندما يجف ، فاذا ترك خارجاً في مهاب الريح حملته وبددته فلا يبقى منه اثر . ونقول : « شيح بريح » ، أي ، « لم يبق منه شي » . ونستعمل هذه العبارة احيانا بمعنى : « لا لنا ولا علينا » .

الكلام مِن فضّة والسّكوت مِنْ ذَهَب(١)

من اكثر الامثال العربية رواجاً ، المثل القائل :« اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » . ولهذا المثل قصة ، ربما بني المثل على اساسها ، او ربما بنيت القصة على اساس المثل ، ولا بأس ، فالقصة طريفة وتجدر روايتها هنا ، لئلا تضيع .

يحكى ان رجلاً اصابه فالج فأقعده ، والمثل يقول : « فالج لا تعالج » . وكان الرجل ملجاجاً كثير التذمر ، لا يستقر على حال ولا يهدأ له بال . فابتكر اولاده طريقة لتسليته ، وهي انهم استأجروا قندلفت كنيسة قريتهم يجلس اليه باستمرار ويسليه بما عنده من قصص واخبار ، لقاء نصف مجيدي في النهار ، إلى ان اخذ الله منه امانته فأراح واستراح .

وحدث بعدئذٍ ان رجلاً آخر في القرية ، شاخ واقعده

---

(١) نشرت في ملحق النهار بتاريخ ٧٣/٣/١٨

عجزه عن الذهاب والاياب ، وكان كثير الكلام يسعده ان يجد من يصغي إلى احاديثه باهتمام ، ففطنت زوجته إلى القندلفت نفسه ودعته وقالت له : « دفع لك الجماعة نصف مجيدي في النهار ، لقاء احاديث متواصلة كان عليك ان تجهد عقلك لتدبيرها وان تتعب لسانك بسردها لكي تسلّي الرجل ، اما انا فكل ما اطلبه منك ان تجلس فقط إلى زوجي وتصغي إلى احاديثه ، بدون اي عناء ، وادفع لك الاجرة نفسها » .

فقبل القندلفت ، وباشر عمله بالجلوس والاصغاء إلى الرجل ، الذي صدف ان لسانه كان لا يزال سليماً معافى ، دون سائر اعضاء جسمه — مثل الصباط يهترىء ويبقى لسانه جديداً — وهكذا بدأ الرجل يتكلم ، بدون انقطاع ، فيأخذ القندلفت ثم يرده ، ثم يعيده بالحديث إلى حيث بدأ به ، ثم يسأله : « اين صرنا بالكلام » ؟ فيبدأ القصة احيانا من طرفها ثم يعود إلى اولها ... « وفتناك بالكلام » ... « وبيرجع مرجوعنا » ... « وبلا موآخذه من حضرتك » ... « وتنذكر ما تنعاد » ... « ويرحم بيك » ...

ولم تكد تمر ساعة من الزمن حتّى ضاق صدر القندلفت وفرغ صبره ، فنادى زوجة الرجل وقال لها : « بدي اعرف مين قطعلك سعر السكوت متل سعر الحكي ؟ استلمي زوجك! وانا رزقي عا الله » .

« من الفَجْر للنَجْر »

معروف ان اللبنانيين ، في القرن الماضي وحتى مطلع القرن الحالي ، كانوا يستعملون غالات خشبية لابواب بيوتهم ، حتى مفاتيح هذه الغالات كانت من الخشب ، وقد عرفت شخصياً هذه الغالات في ايام حداثتي . وكان الرجل عندما يغلق بابه ذي الغال الخشبي يقول : « نجرت الباب » ، ثم اختفت هذه الكلمة بانقراض الغالات الخشبية . وهكذا يكون « النجر » هو اغلاق الغال الخشبي .

ولم تكن هنالك نوافذ زجاجية للبيوت ، والباب هو المنفذ الوحيد ، لا يغلق الا عندما يأوي جميع افراد العائلة إلى البيت فينجر الرجل بابه وينام . وهكذا يقال:« من الفجر للنجر » اي من الفجر حتى وقت اغلاق الابواب .

الحيلة والفتيلة

تُعد عبارة « الحيلة والفتيلة » من اشهر الاصطلاحات الشعبية المتداولة على ألسنة النساء اللبنانيات ، دون الاهتمام بمعرفة اساسها وفهم حقيقتها . فتقول المرأة عن شيء ثمين عندها ، وليس عندها سواه : « هذا الحيلة والفتيلة » ، كما تقول لخطيب ابنتها مثلا ، اذا سأل عن البائنة : « اعطيتها الحيلة والفتيلة — كذا مبلغ من المال — هو كل ما عندي » ، حتى انها قد تقول احياناً ، عن ابن وحيد عندها:« هذا هو الحيلة والفتيلة » . فما هي الحيلة وما هي الفتيلة ؟ .

لنرجع جيلين او اكثر إلى الوراء . في ذلك الزمان كانت العروس تُحضر معها جهازها إلى بيت عريسها في صندوق حفر جوز مطعّم نقشت عليه غالبا بعض التعاويذ مثل : « عين الحسود تبلى بالعمى » ، « وهذا من فضل ربي » ، وما اشبه ذلك . وفي الصندوق ، بالاضافة إلى الالبسة الخارجية وإلى

« بقجة » الالبسة الداخلية توضع « السَبوبة » .

« والسبوبة » هذه تحتفظ بها المرأة إلى آخر حياتها ، فيقال بعد موتها ، مثلا : « وجد في سبوبتها كذا مبلغ من المال » . وهي كيس من الحرير المطرز تضع فيه العروس ، بالاضافة إلى ما عندها من حلي ، رزمة فتائل ورزمة دكك . ومنذ وصولها إلى منزل عريسها — ويكون ذلك غالباً في المساء — تعمد إلى سراج البيت ، فتنتزع فتيلته وتضع مكانها احدى فتائلها وتشعلها بنفسها رمزاً لنور عهد جديد وحياة مشرقة بالامل .

وكان على العريس ان يتجالد فلا يقترب من العروس حتى ينتهي احتراق الفتيلة ، فاذا كانت الفتيلة طويلة تضايق العريس ، ولذلك يقال عن المرأة ، اذا كانت كثيرة الكلام تحب المماحكة والجدال : « أف ما اطول فتيلتها » .

وكانت التقاليد توجب على العروس ان تصنع لشنتيانها دكة من الحرير مع رزمة دكك احتياطية تضعها في سبوبتها . وكان عليها ، ربما بارشاد والدتها او احدى نسيباتها ، ان تحتال في عقد دكتها بحيث يصعب فكها ، ولا يجوز قطعها ، فكان على العريس ان يستعين احيانا بأظافره واحيانا بأسنانه ليتمكن اخيراً من حل العقدة التي كانوا يسمونها « حيله » . اذ كلما تأخر العريس في حل حيلة العروس كان ذلك رمز تعففها . ولذلك يقال عن المرأة المستهترة — من قبيل الاستعارة — « الله يلعنها ، دكتها رخوه » ، كما يقال عن المرأة التي تتبنى

ولداً ، انها انزلته من دكتها ، اذ كان على الطفل ان يمر تحت دكة المرأة ليصبح ابنها بالتبني . امـــا عن « الحيلة » فما زلنا نسمع بعض القرويين ، اذا انعقد الحبل معهم عقدة يصعب حلها ، يقولون ان الحبل معقود « عقدة حيلة » .

وهكذا تبدو أهمية « الحيلة والفتيلة » في حياة امرأة ذلك الزمان ، اذ كان يمكن ان تأتي العروس إلى بيت زوجها ، بدون صندوق مطعم ، وبدون « بقجة » وبدون حلي ، لكن التقاليد لم تكن تسمح لها ان تأتي إلى بيت عريسها بدون «الحيلة والفتيلة». ولذلك كانت تقول عن اثمن ما عندها شرط ان لا يكون عندها سواه : « هذا هو الحيله والفتيله » !

أكل اللبَن والسّمَك

تروي كتب الادب ان الجاحظ اصيب ، اواخر ايامه ، بفالج في جنبه الايسر ، فطلب ان يضجعه ذووه بين كتبه ، ليتناول منها ، ساعة يشاء ، ما يفرّج بها كربه ، فانهارت يوماً كتبه عليه وقتلته ، فقيل : « الجاحظ قتلته كتبه » . ويروي كتاب سرج العيون ان الجاحظ حضر يوماً مأدبة عند ابن ابي دؤاد ، عليها لبن وسمك ، وكان ابن بختيشوع الطبيب حاضراً ، فنهاه عن الجمع بينهما ، فقال : « ان السمك اذا كان مضاداً للبن ، واكلته معه ، دفع كل منهما ضرر الآخر ، وان كانا

متساويين فكأني اكلت شيئاً واحداً ». فقال ابن بختيشوع : « انا لا احسن الكلام ولكن ان شئت ان تجرب فكلْ » . فأكل فأصابه فالج عظيم .

وقصة اللبن والسمك معروفة في بلادنا ، حتى ان كثيرين ، الان ، يحاذرون اكل السمك واللبن في وجبة واحدة ، واكثر من ذلك ، يقول البعض ان من يستحم بعد وجبة من اللبن والسمك يجن حتماً .

وهناك قصة لبنانية ظريفة يشير اليها الكاتب الفرنسي هنري غيز في كتابه « بيروت ولبنان » المطبوع في القرن الماضي وهي ان رجلاً ذهب إلى احد الحمامات العامة ، وبينما هو يستحم فطن إلى انه تغذى لبناً وسمكاً ، واراد ان يتحقق من سلامة عقله ، فقال بنفسه: "لو لم يبق عقلي برأسي حتى الآن ، فكيف كنت تذكرت اني اكلت لبناً وسمكاً"، ولكن ، خوفاً من سوء العاقبة اذا اكمل استحمامه، تعجل وخرج عارياً واخذ يعدو في الشارع إلى بيته ، فتبعه المارّة حتى ادركوه وقبضوا عليه واخذوه إلى اقرب طبيب تولى كيّه على صدغيه، لان الكي كان العلاج الوحيد للجنون في ذلك الزمان .

« بلا مداس ، ولا جميلة الناس »

منذ سنوات عدة ، سمعت المثل القائل:« حلاقة بالفاس ، ولا عازة الناس » . وكنت استشهد به في المناسبات فأراه غاية الغايات ، بالنسبة إلى سواه من الامثال المألوفة ، بنفس المعنى ، مثل: « ثوب العِيره ما بيدفيّ » و « العِيره موكل فيها بليس » و « لا تعيري ولا تستعيري حتى الرَّوبه والخميره » . غير اني سمعت مؤخراً ، مثلا آخر بنفس المعنى والقافية ، لكنه يمتاز بكونه مرتبط بقصة شعبية طريفة، وهو: « بلا مداس ، ولا جميلة الناس » .

المعروف ان آباءنا واجدادنا كانوا يلبسون المداس في ارجلهم ، وهو حذاء تصنع فرعته من جلد الماعز ، ونعله من جلد البقر المدبوغ محلياً . لبسه مريح لانه يأخذ شكل القدم بعد لبسه اسبوعاً من الزمن ، وليس له يمين او شمال . وفي حوزتي مداس قديم احتفظ به للذكرى .

وكانت طبقة السراة والاغنياء ، في تلك الايام ، تلبس المداس الاحمر ذي الحرزة الزرقاء ، المصنوع من جلد مستورد ، غالي الثمن ، متقون الصنع ، يلبسه العريس يوم عرسه ، ويحتفظ به بعد ذلك للمناسبات ، مدى الحياة .

وحدث ان احد العرسان لم يكن بمقدوره ان يشتّري مداساً احمر جديداً ليوم عرسه ، فاستعار ، سراً ، من احد اصدقائه مداساً أحمر ، « ليستّر وجهه » به امام الناس ،

وكانت العادة ان يؤخذ العريس في موكب غنائي إلى ساحة القرية حيث كانوا يحلقون « ذقنه » ، حسب الاصول المرعية ، فمشى صاحب المداس بجانب العريس واخذ يوشوشه من وقت إلى آخر ...

— انتبه للمداس ! قدامك حجر

— لا تدعس بالوحل ! بيتوسخ المداس

— حيّد عن المي

— امشي على مهلك

— اوعا ! المداس ...

« فاشتلق » احد اقارب العريس وهزته النخوة فقفز إلى بيته واحضر مداساً احمر كان يُخبئه لمثل هذه المناسبة . وعندما رجع الموكب اختلى بالعريس وطلب منه ان يخلع مداس الرجل

ويرميه بوجهه ، وان يلبس مداسه ، ولا يكون له ادنى فكر من هذا القبيل . فاطمأن العريس إلى بادرة نسيبه وامتثل لامره ، خوفاً من « الجرسه » .

وبعد قليل خرج موكب العريس مجدداً إلى حيث كان يجب ان يتم عقد القران . فمشى صاحب المداس الجديد إلى جانب العريس واخذ يقول له بصوت مرتفع . .

ـ المداس مداسي ! ادعس ولا يهمك

ـ كل المدس على حسابك

ـ امشي بالمي ! خبّص بالوحل ! مداسي فداك

فانتفض العريس وانتزع المداس من رجليه وقال : « بلا مداس ، ولا جميلة الناس » فجرى كلامه مثلاً .

* * *

« عــمل السَبْعَة وذِمّتْها »

نقول احيانا ، في معرض كلامنا عن رجل يحلل المحرمات ويرتكب الموبقات ، انه يعمل السبعه وذمتها . وقد استفتينا أحد كبار العلماء عن أصل هذا الاصطلاح فقال ان « السبعه » هنا هي الكبائر او الفواحش السبع التي نهى الله عنها في كلامه : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، كالسرقة والزنى وغير ذلك . أما « الذمّة » فتعني اثبات الفاحشة ، ظاهراً وباطناً بذمة الرجل ، كقولنا: « ثبت لفلان بذمة فلان كذا مبلغ من المال » . ولذلك يقال « عمل السبعه وذمتها » أي ان الفواحش السبع ثابتة بذمة الرجل . كما نقول احيانا ان فلانا « ذمته واسعة » ونعني انه يحلل أكل المال الحرام .

ويبدو ان العدد « ٧ » له مدلول خاص في مفهوم الدين ، فالله خلق الخليقة في ستة أيام واستراح في اليوم السابع فصار

الاسبوع سبعة أيام . وكذلك فان السماوات سبع كما هو معروف ، وان الحجاج يطوفون حول الكعبة سبع مرات ويسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط . واذا رجعنا إلى التوراة نجد ان العدد « ٧ » يرد ذكره كثيراً عند الكلام عن الزمان كالسنوات السبع العجاف في قصة يوسف وكالأزمنة السبعة في قصة دانيال وغير ذلك . حتى في الاساطير فقد كان للحكمة سبعة أعمدة .

وقد يكون العدد « ٧ » هو نهاية الاعداد في بعض اللغات البدائية . فقد سمعت يوماً ولداً من أبناء الغجر يعد بلغة قومه حتى العدد « ٧ » ثم يكمل العد بالاعداد العربية ، وعندما طلبت منه ايضاحا اجاب : « هكذا علمني أهلي ان أعد » .

كذلك سمعت في حداثتي من يتحدث عن رجل اسمه الصابونجي . قال انه كان يتكلم « السبع ألسن » وانه طاف « السبع بحور » ، فظننت الكلام مبالغة ؛ حتى وقعت في احدى مطالعاتي على سيرة الدكتور لويس الصابونجي — مربي أبناء السلطان عبد الحميد — فاذا به يعرف عشر لغات لا سبعاً فحسب ، واذا به قد طاف ، لا شك ، في أكثر من سبعة بحور ، لأنه قام بسياحة حول الكرة الأرضية استغرقت ثلاث سنوات تقريباً .

وفي رسالة إلى فرعون مصر من حاكم مدينة عرقا

الفينيقية يقول : « مولاي انا عبدك وغبار قدميك ، أسجد عند موطىء قدميك ، سبع مرات وسبع مرات ، واؤكد اني خادم الملك و كلبه الامين » [1] .

* * *

عالوعد يا كمّون

معروف ان الكمّون يُزرع ولا يُسقى ، لانه في الاساس من النباتات البعلية . لكن يحدث ان تزرع مسكبة الكمون بين مساكب النعناع والفجل واليانسون مثلا ، وعندما يحمل المزارع مرشّته في المساء ليسقي هذه المساكب ، يتجاوز مسكبة الكمون فلا يسقيه ، لاعتقاده ان الكمون لا يحتاج إلى سقاية .

وتقول القصة ان الكمون يحتج احيانا على هذه المعاملة ويطلب مساواته بسائر النباتات ، فيعده المزارع خيراً . فيصدّق الكمون ، لطيبة قلبه ، وسلامة نيّته ، ويثابر على النمو ، فيعيش بالوعود . لذلك نقول لمن يثق بوعود الناس ويعلل نفسه بالآمال الكاذبة : « عالوعد يا كمون ! »

(١) النهار في ١٩/٤/٧٣

« النذر للدِّير » والمِسك « على سِمْعان »

وهذا المثل له قصة مشهورة ومعروفة عند كثيرين من اللبنانيين ، رواها الاب انطونيوس شبلي في كتابه « الآثار المطوية » ، وهي ان غبطة البطريرك سمعان عواد اعتكف أواخر أيامه في قرية الميدان ، بالقرب من دير سيدة مشموشة في قضاء جزين [1] .

وكان المؤمنون ، كجاري عادتهم ، يؤمون الدير حاملين اليه الهدايا والنذور ، ويعرّجون بعدئذٍ على مقر غبطته في قرية الميدان لأخذ بركة او رفع ظلامة او طلب مساعدة ، وكان بعض القادمين من أماكن نائية يجدون في أكناف غبطته

(١) جاء في تاريخ الموارنة للمطران يوسف الدبس ان البطريرك سمعان عواد هو الذي انشأ دير مشموشة وسلمه إلى الرهبان اللبنانيين وتوفي في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦.

الطعام والدفء والامان ، فيبيتون عنده ، و « يقضون حاجتهم » ، بحكم الضرورة ، حول بيته .

ويقال انه تبرم يوماً من هذه الحالة وقال : « النذر للدير وما تبقى على سمعان » فصارت عبارته قولا مأثوراً .

« بُقِّ البَحْصَة يا انْطُون! »

ويحكي ان البطريرك سمعان عواد كان عنده شماس اسمه انطون ، وكان جميل الصوت طيب القلب فاكتسب بذلك ثقة البطريرك ومحبته ، الا انه كان سبّاب دين بحكم العادة ، وكلما زجره البطريرك بسبب شتيمة عابرة اعتذر وقال انها صدرت بدون ارادته . فأمره أخيراً أن يضع دائماً في فمه بحصة ، فاذا طرأ ما يوجب السباب فطن إلى البحصة وارتدع .

وحدث يوماً أن البطريرك كان يزور احدى القرى ، ولدى خروجه منها سمع امرأة تناديه من رأس الضيعة وتستحلفه بالقربان المقدس ان يمر على بيتها ، فرجع وأخذ يسير صعداً في طريق موعرة ، برغم شيخوخته ، ومعه انطون المذكور ، حتى وصل إلى بيت الامرأة ، واذا بها تطلب منه ان يبارك لها « القرقة والصيصان » ، فصاح بالشماس: « بق البحصه يا انطون » ! . وصارت عبارته مثلاً .

« وَاحِد حَامِل دَقْنُو والثاني تعبَان فيها »

يظن البعض بداهة ، ان الدقن هي اللحية ، ويعتقد آخرون انها تحريف كلمة « ذقن » . ويقول بعض المعمرين ان الدقن لا هي بلحية ولا هي بذقن . فاللحى تختص برجال الدين ، والدقون تختص بالعامه ، ولا سيما المسيحيين الذين يطلقون شعور ذقونهم ، فهم من أصحاب الدقون لا من ارباب اللحى . ولذلك نستعمل أحيانا كلمة « دقن » في معرض التهكم ، فيما نتحدث عن اللحية بجد واحترام .

والدقن كاللحية ، على كل حال ، هي رمز كرامة الرجل ، لا يكتمل بدونها ، وتسمى كريمة الرجل – والكريمتان هما العين واللحية – فاذا كان الرجل اجروديآ وأراد ان يتكمل ذهب إلى الشام وأوصى على دقن مستعارة ، فيلبسها بحذر تام ، ويعاني مشقة في تركيزها وتثبيتها حتى لا ينكشف أمرها ، لذلك قيل : « واحد حامل دقنو والثاني تعبان فيها »

كما قيل : « من كل دقن شعره صار عندو دقن » .

ومن القصص اللبنانية القديمة ان رجلاً من احدى القرى رهن شعرة من دقنه عند أحد تجار بيروت لقاء مبلغ من المال ، فقبل التاجر الرهن لأنه كان يفهم ماذا تعني شعرة من دقن رجل شريف .

وعلى اعتبار ان اللحية او الدقن رمز تعقل الرجل قيل : « بوس الايادي ضحك عالدقون » ، اي على عقول أصحابها . وكان الرجل كثيرا ما يشير إلى لحيته او دقنه في أحاديثه مثل « لا تعملوها بهالدقن »و« كرمال لحيتي » و « لا تحطوا هالقملة بدقني » وغير ذلك .

وكان على أصحاب الدقون أن يحافظوا على شرف دقونهم بالتعفف والنزاهة والابتعاد عن الشراهة ، لذلك قيل : « عند البطون ضاعت الدقون » .

وكانوا يطيّبون دقونهم ولحاهم بالمسك ، وهذا أساس المثل القائل : « قالولو قنطار مسك بلحيتك قال كتْرتو مش لخير » .

ومن تقاليد المجتمع ان المرأة اذا انتبهت إلى وجود صاحب دقن يمشي وراءها في الشارع وقفت جانباً بكل احترام ليجتاز فتسير وراءه ولو كان « نوري اندبوري » .

« مَطْرَح ما « عملها » شَنَقُوه »

لعل أبلغ أمثالنا الشعبية هو المثل الشائع : « مطرح ما . ري شنقوه » الذي روى لنا قصته المرحوم عابدين الحـاج من قرية الرفيد ، الذي مات لسنوات قليلة خلت عن أكثر من مئة سنة، وكان راوية أخبار وأحاديث من طراز رفيع قال :

عاش في دير القمر ، في عهد الامير حيدر الشهابي ، بيطار اسمه زيدان ، اتاه يوماً رجل معه جمل أعرج يطلب له علاجاً ، فقال له : « جملك يحتاج إلى أحذية فكيف تركته حافياً حتى الان » . وسلكت الحيلة على الرجل ، فركب له زيدان أحذية لأرجل الجمل وقبض الاجرة . وجر الرجل جمله وسار به في أزقة دير القمر فأخذ الناس يضحكون عليه « ويتندرون » به .

وبلغت هذه القصة أخيراً مسامع الامير ، فأرسل وراء زيدان وعنّفه وبصق في وجهه أمام الناس وحكم عليه باعادة ما قبضه إلى صاحب الجمل .

وبعد أيام قليلة سمع زيدان من يقول ان الامير حيدر على فراش الموت ، فأقسم بشرفه ، على مسمع من زوجته ، ان « يقضي حاجته » على قبر الامير انتقاماً منه لشرفه .

وكانت زوجة زيدان امرأة قهّارة ، فأخذت تعيّر زوجها بالجبن والنذالة لانه أقسم ولم يبر بقسمه حتى « كبر الامر برأسه » في احدى الليالي ، وانسل تحت ستر الظلام إلى حيث دفن الأمير حيدر ، فوقع في ايدي الحرس الذين أخذوه إلى الامير ملحم ، ابن الامير حيدر ، الذي كان قد صار أميراً على لبنان خلفاً لأبيه .

وعبثاً حاول الامير ملحم أن يستدرج الرجل إلى الكلام عن سبب مجيئه إلى ذلك المكان ، في تلك الساعة ، فحكم عليه أخيراً بالاعدام شنقاً . والتمس الرجل من الامير ان يشنقه فوق قبر أبيه الامير حيدر ، دون ان يفصح عن سبب طلبه هذا .

وجاء من يقول لامرأة زيدان : « زوجك مشنوق فوق قبر الامير حيدر » . فهبت تركض نحوه وتصيح : « مطرح ما . ري شنقوه » ، فجرى كلامها مثلاً .

وقد رويت هذه القصة للمؤرخ جوزف نعمه – ابن دير القمر – فعقّب عليها بقوله ان الامير حيدر الشهابي مدفون إلى جانب جده الامير احمد المعني في مدفن من المرمر ما زال قائماً شمال شرق دير القمر ، وفوقه قبة معروفة باسم قبة المشنوق او قبة المشانيق حتى يومنا هذا .

« مُشْ رمَّانه ، قلوبْ مِلْيانه »

يحكى ان شاباً التقى وفداً يتقدمه أحد كبار رجال الدين ، فاستلم وسلم وقال : « يا مسهّل ؟ » . فأجاب كبير الوفد : « المسهل الله ، رايحين نستعير خميره من بيت فلان لبيت فلان » . قال الشاب : « وهل تستحق الخميرة عناء هذا الوفد الكريم ؟ » . فابتسم رجل الدين وقال : « بالحقيقة رايحين نخطب بنت فلان لأبن فلان » .

وهكذا استعار الرجل كلمة « خميرة » لهذه المناسبة . كما سمعت رجلاً في أحد الايام يتحدث عن كنته قال : « انها خميرة البركة » .

ومن العادات القديمة ان تلصق العروس خميرة على عتبة الباب عند وصولها إلى بيت عريسها ، وكانت الاصول تقضي ان تقف والدة العريس في باب البيت وتزغرد للعروس عند وصولها ، ثم تناولها الخميرة ، وبعد ذلك تضع أمامها رمانة

تدوسها العروس بأحد قدميها وتدخل .

والخميرة هي رمز البركة ، اما الرمانة فيقال ان العباسيين كانوا يجربون نساءهم بواسطة الرمان — وربما كانت هذه العادة قبل عهد العباسيين — فيطلب الرجل من زوجته ان تفقأ رمانة وتفت حباتها في صحن دون ان تدع حبة واحدة تفلت من يدها وتقع على الارض . فان حدث ذلك تشاءم الرجل وطلق زوجته .

من ذلك الوقت نشأت كراهية النساء للرمان ، وصار من دواعي تطمين العروس إلى عدم احراجها في بيت زوجها ان تضع حماتها رمانة أمامها فتدوسها وتدخل مطمئنة إلى بيتها الجديد .

ويفترض في هذه الحالة ان احدى النساء كانت حاقدة على عروس ابنها التي تزوجها بغير ارادتها . ومن قلب مليء بالحقد وضعت أمام كنتها رمانة مهترئة ، وحين داستها العروس فاحت منها العفونة ، فقال احد الحاضرين : « هذي مش رمانه ، هذي قلوب مليانه » .

« حُط بالخُرج »

من القصص المتواترة على ألسنة الناس قصة رجل دين اشتهر بالتقوى والفضيلة ، وكان صاحب طريقة خاصة بعمل البر ، فيعتقد ان اشاعة الخير بين الناس هي أول اقانيم التقوى . لذلك كان يجمع الصدقات من الاغنياء ويوزعها على الفقراء بطريقة خالية من الاحراج ، فيطوف على فرسه من مكان إلى اخر وتحته خرج توضع فيه الاعانات ، فاذا تقدم اليه رجل بمبلغ من المال قال له : « حِط بالخرج » ، دون أن يهتم بمعرفة قيمة المبلغ الذي تصدق به كل واحد ، فيكون جميع المتصدقين سواسية في نظره . وهكذا اشتهرت عبارة « حط بالخرج » فصارت مثلاً معروفاً .

وكان سبق لمجلة أوراق لبنانية ان نسبت هذه القصة إلى الامير سيف الدين يحيى التنوخي من عبيه ، وقالت كذلك ، ان من الشيوخ من نسب هذه القصة إلى الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي الذي كان من أعلام التقوى والفضيلة .

«انكلزلي بانكلزلك!»

في أواسط القرن الماضي جاء إلى لبنان مبشر انكليزي يدعو الناس إلى اعتناق المذهب الانجيلي ، وحل في احدى القرى اللبنانية داعيا الناس إلى الخلاص بطريقته الجديدة ، فلم يقبل أحد اليه .

فعمد أخيراً إلى اكتساب قلوبهم عن طريق جيوبهم ، وأخذ يدفع إلى كل واحد يقبل دعوته ليرة انكليزية ذهباً كل شهر .

عندئذٍ تكاثر عدد المؤمنين به والمتحمسين لدعوته ، فاعتقد ان بذرة الايمان نبتت في قلوبهم ، وان حقل الرب أثمر في نفوسهم ، فكف عن دفع الليرات الانكليزيات ، مستعيضاً عنها بالصلوات والابتهالات .

فأخذ « المؤمنون » يبتعدون عنه واحداً بعد الآخر ، وعندما سألهم عن سبب فتور حرارة الايمان في قلوبهم أجابوا :

« انكلزتلنا انكلزنالك ، بطّلت تأنكلزلنا بطّلنا نأنكلزلك » .

من ذلك الوقت دخل فعل « انكلز » في لغة اللبنانيين ، وصاروا يستعملونه في مناسباتهم قائلين : « أنكلزلي تا أنكلزلك » أي ، ادفع لي سلفا فأفعل لك ما تريد .

وحدث سنة ١٩٥٧ ان رشح المرحوم اميل البستاني نفسه للنيابة عن منطقة الشوف ، وكان في ذلك الوقت رئيساً لمصلحة التعمير ، فتطوعت مع بعض الزملاء للدعاية له في بعض القرى .

وفيما كنا ندعو أبناء احدى القرى إلى تأييده ، اجابونا بكل صراحة : « انكلزولنا فنأنكلزلكم » ، و « الانكلزة » بلغة التعمير كانت تعني زيادة مخصصات الاهالي لترميم بيوتهم المتصدعة من الزلزال .

غير ان البستاني لم يسمح لنا ان نؤنكلز للجماعة سلفاً ، فيما أصرّ الجماعة على ان الانكلزة لا تكون الا نقداً وعداً ، ولذلك عندما ذهبنا برفقة البستاني إلى تلك القرية ، بعد أيام قليلة ، « انكلزولنا » على طريقتهم الخاصة ، فرشقونا بالحجارة وأسمعونا بعض الشتائم نقداً وعداً .

كان البستاني ، لذكراه الخلود ، يحب هذه القصة ويستشهد بها في أحاديثه ويعلق عليها بلباقة . ذكر لنا يوماً ، ان الجنرال سبيرز تساءل في احد مجالسه عن سبب تحامل السوريين على

السياسة البريطانية فقال : « حميناهم من الفرنسيين وساعدناهم على نيل الاستقلال الناجز ، فلماذا تهاجمنا صحافتهم وتطلب جلاءنا عن بلادهم ، وهم لا يقدرون ان يحموا أنفسهم بدوننا » .

فقال أحد رجال الصحافة : « انكلزولهم يا سعادة الجنرال » ، فضحك الحاضرون وطلبوا من البستاني أن يروي للجنرال قصة مواطنه المبشر الانكليزي مع أهل لبنان .

فطفق البستاني يروي القصة بأسلوب طريف ضحك له جميع الحاضرين ما عدا الجنرال سبيرز الذي قال بجد مشوب بالاستهزاء : « اذا كانت علاقات الناس في هذه البلاد لا تتوثق إلا بهذا الأسلوب ، وصداقاتهم لا تتحقق الا بهذه الوسيلة ، فهذا ما يؤسف له حقاً » .

* * *

«كل شي إن زرعتو بينفعك
إلا ابن آدم إن زرعتو بيقلعك»

زارني مرة شيخ درزي غريب ، وبعد ان أهلّت به ثلاث مرات ، حسب العادة ، قال : « اني أشكو من ألم في معدتي ، اعالجه غالبا بالسماق ، وقد بلغني انك تحتفظ بكمية منه لحاجتك ، فالرجاء ان تعطيني منه ما يسد حاجتي مؤقتاً ، بأي ثمن كان . ولكن اذا أردت ان تعمل « مكرمة » مع هذا العبد الفقير ، أقبلها منك » .

فهزت مشاعري لباقة هذا « العبد الفقير » الذي يقبل مني ان أعمل معه « مكرمة » ، اي أن أقدم اليه قليلا من السماق مجاناً ، وكأنه يريد مني ان أفهم أنه لا يقبل هدية من أي كان ، لكنه ، اكراما لخاطري ، ولعلمه الأكيد اني رجل صالح ، يطمئنني سلفاً أنه يقبل مكرمة مني .

وكانت امرأتي عندئذٍ تحمل أحد أولادنا الذي كان ما

زال طفلاً ، فقلت لها : « هاتي الطفل واذهبي واجلبي كل ما عندنا من السماق » .

فأخذ الطفل يبكي ، وعبثاً حاولت اسكاته ، لا حبا بمراضاته ، بل اكراماً لخاطر الشيخ ، وحباً في مجاملته ، فقلت : « عفواً يا حضرة الشيخ ، اريد ان أرحب بك وأقوم بواجبك لكن هذا الطفل يزعجني ويزعجك ، فما أكثر غلبة الاطفال وما أتعب تربيتهم » .

فقال الشيخ : « ولذلك ، صح فيهم قول المثل » : « كل شي ان زرعتو بينفعك الاّ بنادم ان زرعتو بيقلعك » .

من ذلك الوقت ، صرت كلما التقيت رجلا أثقل الهم ظهره ، من طفل له مريض او ولد عاق او معاق ، او ابنة خانها الحظ او نكبتها الطبيعة بسحنة شنيعة ، اشاركه غمه بقولي : « كل شي ان زرعتو بينفعك الا بنادم ان زرعتو بيقلعك » .

* * *

«الوَلَدْ وَلَـدْ وَلَوْحَكَمْ بَلَدْ»

يحكى ان والي مصر محمد علي باشا خرج يوماً يتنزه مع بعض أفراد حاشيته ، فمرّوا بأولاد يلعبون بالكلل ، وكان بينهم ولد يلبس طربوشاً جديداً فتناوله محمد علي باشا عن رأسه وقال له : « بكم تبيع هذا الطربوش » فقال: « طربوشي كان سعره عشرين مصرية قبل أن تمسه يدكم الكريمة ، امـا الان فقد أصبح ، في يدكم ، أغلى من أن يباع بثمن » .

فأعجب محمد علي باشا ببداهة الولد وقال لمن معه : « هذا الولد ! ربما صار يوماً حاكماً عظيماً » . ثم قال له : « اذا أعطيتك ثمن الطربوش ألف مصرية فماذا تفعل بها » ؟ قال : « اشتري كللاً وألعب بها مع رفاقي » .

فضحك محمد علي باشا وقال : « الولد ولد ولو حكم بلد » وجرى كلامه مثلا تناقلته الالسن ووصل إلى لبنان فصار من الاقوال المأثورة عندنا .

«خَمّنا الباشا باشا ، تاري الباشا زَلْمِي »

عندما تولى الأمير بشير الشهابي الثالث امارة جبل لبنان ، كانت صورة سلفه الامير الشهابي الكبير ما تزال ماثلة في أذهان اللبنانيين : لحية غضة كثيفة وعينان مشرقطتان تحت حاجبين متنافرين وسيف مذهب وعباءة مزركشة وصوت جهوري يقصم الظهر .

لذلك لم « يـُملّ » خلفه الامير بشير الثالث عيون مواطنيه ، فقد كان حليقاً نحيلا خافت النبرات ، تعوزه مظاهر الرجولة ، فثاروا عليه وأرغموه على الفرار ، وانتهى بذلك حكم الامارات المتعاقبة على لبنان من تنوخيين ومعنيين وشهابيين ، خلال أجيال عدة .

وعينت الدولة العثمانية ، بعدئذٍ ، عمر باشا النمساوي حاكماً على لبنان . وكان لقب « باشا » يعني في نظر اللبنانيين ، أكثر من لقب « أمير » ، بالنظر لما رسخ في أذهانهم عن

عظمة أحمد باشا الجزار ومحمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا وسائر باشاوات ذلك الزمان ، الذين كان امراء جبل لبنان يخضعون لهم في أغلب الاحيان . لذلك أكبر اللبنانيون مبادرة الدولة العلية بتعيين أحد الباشاوات حاكما على جبل لبنان ، الا انهم ما لبثوا ان اصيبوا بخيبة أمل عندما رأوا الباشا يطل عليهم من فوق صهوة جواده ، فقالوا : « خمّنا الباشا باشا تاري الباشا زلمي » ، وجرى كلامهم مجرى الامثال إلى يومنا هذا . فقد كان عمر باشا اوروبي الزي والثقافة والمفاهيم ، ولذلك استقبلوه بفتور وشيعوه بالرصاص .

«ضَاعتِ الطاسَة»

ومما يروى ان عمر باشا النمساوي استحدث بعض التنظيمات الحديثة في الادارة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالموازين والمكاييل .

والمعروف ان « الطاسة » — قبل تعميم استعمال الكيلو والليتّر في بلادنا — كانت مكيولا من النحاس يستعمل لبيع الحليب واللبن ، سعته ثلاث اواق ، اي نصف اقة اسطنبولية . ويقال ان عمر باشا هذا ، الذي حكم لبنان سنة ١٨٤٢ هو الذي عمم استعمال هذه الطاسات النحاسية ، بدليل وجود عدد منها عند هواة الاثار ، وهي تحمل خاتم « عمر باشا » على ما يقال .

وأكثر من ذلك ، يقول احد الرواة ، دون ان يقرن قوله بالقرائن والاثباتات ، ان عمر باشا أمر بصنع طاسة انموذجية مختومة بخاتم خاص ، تحفظ في ديوانه للرجوع اليها كلما حدث شك او التباس باحدى الطاسات الاخرى المستعملة .

وحدث يوماً أن قام « الشنتيري » ، رئيس حرس عمر باشا بجولة تفتيشية على بائعي اللبن والحليب ، وصادر عدداً من الطاسات المشتبه بأمرها وجاء بها مع أصحابها ، لمقارنة هذه الطاسات بالطاسة الانموذجية المذكورة ، فاذا بها قد ضاعت واختفت . وحدثت عندئذ فوضى وأخذ ورد في الموضوع ، حتى صار ضياع الطاسة مثلا معروفا عند جميع اللبنانيين .

هذا مع احترامنا لوجاهة رأي الاستاذ جوزف نعمه ، نقلا عن احدى معمرات دير القمر ، ان ثلاث طاسات نحاسية كانت معلقة في رؤوس الاسود الثلاثة التي يصب الماء منها في بركة رستم باشا في ساحة دير القمر ، ليشرب عابرو السبيل بواسطتها . وكان يحدث غالباً ان تضيع احدى الطاسات او تستبدل باخرى حتى تقرر نزعها نهائياً والاستغناء عنها ، وترددت يومئذ عبارة « ضاعت الطاسة » كثيرا ، حتى صارت مثلا يقال كلما دبت الفوضى وكثر القيل والقال .

المهم ان طاسة الحكم لم تلبث ان ضاعت من يد عمر باشا ، النمساوي ، وأفلت زمام الامور من قبضته ، وقامت في وجهه عدة فتن وثورات متلاحقة طوال مدة حكمه ، فأوفدت الحكومة العثمانية ، خليل باشا للتحقيق في أسباب الانتفاضات اللبنانية المتواصلة ، ويذكر رستم باز في مذكراته ، ان خليل باشا ، قبل مجيئه إلى لبنان ، زار الامير بشيراً الكبير ، الذي كان لا يزال منفياً في اسطنبول حتى ذلك الوقت ، وقال له : « أنت حكمت جبل لبنان مدة خمس وخمسين سنة متواصلة ، فكيف استطعت ان تحكم كل هذه المدة ، وما هي ، برأيك ، مواصفات الحاكم الناجح في نظر اللبنانيين » .

فضرب الامير بشير ، لخليل باشا ، مثل طير « البوفار » الذي يقف على صخرة عالية ، عند الصباح ، وينظر إلى ظلّه المستطيل ، فيستعظم نفسه ويقول : « سأتغدى ، اليوم ، بقرة » . ثم تأخذ الشمس بالارتفاع فينظر إلى ظلّه وقد تقلص فيقول : « لا بل سأتغدى أرنباً » ، وعندما تصل الشمس إلى قبة الفلك يجد ان ظله قد أصبح بحجمه الحقيقي ، فيقول : « عسى ان أجد فأرة أتغداها اليوم » . ففهم خليل باشا ان الحاكم في جبل لبنان يجب أن يحكم من فوق ، مثل شمس الظهر ، فيرى كل انسان ، في ظله ، حجمه الحقيقي .

وعندما وصل خليل باشا إلى لبنان استقبله اللبنانيون بعرائض تطالب باعادة الامير بشير الكبير حاكما على لبنان ،

فكتب إلى الاستانة يقول : "اعيدوا الامير بشيراً او ، جدوا له نظيراً "، لكن شيخوخة الأمير وسوء صحته حالتا دون عودته .

« فَلَتَ الملَقّ »

وكما نقول : « ضاعت الطاسة » ، نقول كذلك ، وبنفس المعنى : « فلت الملقّ » (بتسكين الميم وتشديد القاف) . فقد كان آباؤنا يعبئون الزيت وينقلونه في ظروف من جلود العجول ، فيسلخون الجلد ، بدون شقه ، ويدبغونه ويوثقون جيداً مواقع الرجلين واليدين . وبعد تعبئته من مكان الرقبة يربطونها بوثاق من الصوف ، كانوا يسمونه : « الملقّ » . وقيل ان « الملقّ » هو خابور خشبي يعقدون الوثاق المذكور عليه .

وكان المكاري ، عند نقل الظرف على ظهر الحمار ، يتحاشى تلوث الملقّ بالزيت ، لئلا يصير قابلا للارتخاء . فاذا فلت الملقّ ، في هذه الحالة ، يصعب اعادة احكامه ، بسبب ضغط الحبل على الظرف وهو على ظهر الحمار .

ولعل ذلك كان من مشاكل المكارين في ذلك الزمان ، حتّى صاروا يقولون كلما تأزمت الحالة ودبت الفوضى : « فلت الملقّ » .

«صَيْف وشِتاء عَلى سَطْح وَاحِد»

اشترى رجل كيس صوف من تاجر في المدينة وحمله إلى بيته في المساء ووضعه على السطح . وفي الصباح افرغ الصوف ليندفه فوجده مبللاً . فعاد إلى التاجر وقال له : « انت خدعتني لانك بعتني الصوف على القبان وهو مبلل بالماء فزاد وزنه ، وهذا غش فاضح .

فسأله التاجر اين وضع الصوف ، وعندما علم انه تركه ليلا على السطح قال : « لا شك ان مطراً هطل في الليل فابتل الصوف وجئت الآن تفتري عليَّ » .

قال : « ولكن نحن الان في فصل الصيف ولا ينزل مطر في هذه الايام ، وهب انها امطرت ، فاني قد وضعت برغلاً على السطح ، منذ يومين وما زال ، وهو جاف ناشف الان ، فكيف امطرت على الصوف ولم تمطر على البرغل ، وهما على سطح واحد » .

وتدخل اخيراً ، بين الرجلين ، بعض العقلاء ونصحوهما ان يرفعا القضية إلى قاضي المدينة فيحكم بينهما .

وعندما مثلا بين يدي القاضي قال الشاري : « جئنا يا مولاي نسأل ، كيف يحصل شتاء وصيف على سطح واحد ... »

فعاجله القاضي ، قبل ان يعرف الحقيقة ، وقال : « بإرادة الله يحصل كل شيء ، فأنتما رجلان عاقلان ولو لم تكونا متأكدين ان ما تقولان حصل فعلاً ، لما جئتما الان تؤكدان ذلك ، اننا سندون الان هذه المعجزة ونذيعها على الناس » .

* * *

يضرب لنا مثلاً

رجل فرنسي شغل مركزاً عدلياً كبيراً في لبنان ، عدة سنوات ، كان يضرب مثلاً : رجال الامن يطاردون رجلا في الشارع ، فيبادر المواطنون الى مساعدته بكل الطرق ، حتى لا يقع في قبضة العدالة ، دون ان يعرفوا الحقيقة ، مع ان الرجل قد يكون سارقاً . فلماذا يقف الناس ، في لبنان ، بداهةً ، في جانب المجرم ، لا في جانب رجال الامن ؟

« وحَقِّ العُود ، والرّبِّ المَعْبُود ، وسَيِّدْنا سْليمان اِبْن داوُد »

في الثلث الاول من القرن الحالي كانت لأبناء منطقة مرجعيون علاقات وصداقات مع ابناء قبائل البدو الضاربين في انحاء سوريا والاردن وفلسطين .

وكان يحدث مثلاً ، ان يسلّم المرجعيوني إلى عميله البدوي قطيعاً من الغنم يرعاه لمدة سنة ويأكل نصف غلته ، فيأتي البدوي عند انتهاء السنة ومعه نصف الغلة ، دون ان تكون بينه وبين المرجعيوني اية شروط مكتوبة ، لان البدوي ، على سجيته ، يعتقد ان الدين هو المعاملة .

اما اذا حدث خلاف او شك ، فكل ما يفعله المرجعيوني هو ان يطلب من البدوي ان يحلف له على العود ، فيأخذ البدوي عوداً بيده — اي عود موجود — ويقول : « وحق العود ، والرب المعبود ، وسيدنا سليمان بن داوود ، اني لا خنت ولا بخون هذا الزلمي » — واحيانا يقول ، « هذا الكافر » — ولم تكن كلمة « كافر » تعني اية اهانة او تحلل اي محرم ،

لأنها تعني « غير المسلم » فقط .

فمن اين جاء هذا الايمان بالعود ، والتأكيد على ذكر سليمان بن داود ، دون سواه من الانبياء والاولياء الاولين ؟ يقول احد المعمرين : — في ذلك الزمان كانت عظمة الانسان تقاس بكثرة عدد نسائه ، ولما كان سيدنا سليمان اعظم اهل ذلك الزمان ، فقد ضم في خدوره اكثر من الف امراة من السراري والجواري ، من مختلف الشعوب والألوان .

وبعد ان دانت له رقاب اعدائه اراد ان يمتحن اخلاص نسائه فكان يستدعي اليه كل واحدة منهن على حدة ويقول لها ، مشيراً إلى عود كان بيده : « اطلب منك ان تقسمي بالاخلاص لي ، على هذا العود ، ولكن احذري ! ان كنت غير متأكدة من اخلاصك لي ، فان هذا العود يتحول في يدك إلى جمرة محرقة ان كنت كاذبة في قسمك » .

وكانت تلك حكمة من حكم سليمان اراد بواسطتها ان يراقب ردة الفعل عند كل امراة وهي تقسم على العود فيعرف دخيلتها . وعندما جاء دور زوجته بنت الفرعون ترددت وقالت بوجل : « انا بنت فرعون مصر ، لا اقسم لك على هذا العود ، ان كنت تشك باخلاصي ارجعني إلى بلادي » . وهكذا كان لأن ولاء بنت الفرعون لأبيها كان اكثر من ولائها لزوجها سليمان ، حسبما ثبت بالحس والبرهان .

«كل شي على بابُو بيشـبَه صْحَابُو»

كان عندي ، في الضيعة ، كلب جعاري قليل التهذيب اسمه « برقش » ، يطيب له احيانا ان يتمضمض بدم عراقيب القادمين لزيارتي ، فيسوّد وجهي معهم في أكثر الاحيان . الا انه اصيب ، على« كـبَـر» ، بطرش حاد ، زاد في شكاسته لكنه قلل من نباهته ، فاذا كان نائماً وقدم قادم من ورائه سلم من اذاه ، فاذا انتبه له « تعبّاه » بنتشة من كمه او نهشة في قفاه .

جاءني يوماً رجل غريب وعبر من ورائه . وكانت له عندي حاجة ملحة ، « وصاحب الحاجة ذليل » ، كما يقول المثل ، فأخذ يتملقني بقوله : « انت بي الفقير ، انت مشكى الضيم ، أنت صاحب البيت المفتوح ، انت راس الاوادم ... »

فقلت له : « وكيف عرفت ذلك ؟ » .

قال : « كلبك هذا النائم قدام بابك متعود على الضيوف

وأصحاب الحاجات مثلي ، فلا ينبح على القادمين إلى بيتك » .

قلت بنفسي : « بيّض الله ثناء « برقش » ، انه بيض وجهي هذه المرة » . لكن الرجل تابع كلامه فقال : « المثل ما قال شي كذب: « كل شي على بابو بيشبه صحابو » .

أما قصة هذا المثل اللبناني البليغ ، فتعود إلى ايام «النقّاش» . والنقاش هذا ، يتحدث عنه الاختيارية من اللبنانيين ، ولا سيما ابناء الشوف ، وتنسب اليه ألقاب كثيرة يتداولها الناس . فاذا زار النقاش مثلا ، احدى القرى ، ورأى في مدخل القرية ابن آوى ، سمّى اهل القرية: « الواويه » ، وان رأى رفاً من الحجل، سماهم: « ديوك الحجل » ، وما اشبه ذلك . وهكذا تنسب إلى النقاش عدة ألقاب وتسميات متداولة على السنة الناس إلى يومنا هذا .

ويقال كذلك ، ان داود باشا ، اول متصرف على جبل لبنان ، عهد إلى النقاش ، باجراء احصاء للذكور البالغين ، عملا بقانون ضريبة الاعناق ، وكان على النقاش ، لذلك ، ان يجوب القرى ويدخل إلى البيوت ويحصي من فيها .

وكانت التقاليد لا تسمح لقادم غريب ان يدخل راساً إلى اي منزل ، بل عليه ان ينادي من الخارج باسم صاحب البيت ، ويتريث قليلا حتى «تنحدف» النساء .

ولما كان النقاش لا يعرف اسماء الناس ، فقد لجأ إلى خطة

هي انه كان ينادي صاحب البيت بلقب مشتق مما يراه امام باب بيته ، فاذا رأى أزهاراً ، نادى : « يا مزهر او يا زهار » ، وان رأى حبلة امام الباب نادى : « يا بو حبلة » ، وإن رأى بعض الاوساخ نادى : « يا زبال » ، وما أشبه ذلك . فـإذا اعترض احد الناس اجاب النقاش : « كل شيء على بابـو بيشبه صحابو » . فصارت عبارته هذه مثلاً .

« عَايِشْ تَرْخَنَـه »

اذا تحدثنا عن رجل خلا راسه من الهم ، وتأمنت له وسائل العيش ، يأكل ويشرب وينام ، نقول انه يعيش « ترخنه » (١)

وكلمة « ترخنة » تركية الاصل ، فالاتراك يسمون الكشك « ترخنا » . وكما نقول مثلاً : « الزلابه محرّمة على الكلاب » ، هنالك مثل يقول : « الكشك محرّم على التنابل » .

وصنع الكشك ، كما هو معروف ، عمل جماعي يتعاون عليه الجيران والاصدقاء ، اما التنابل فلا يساهمون في صنعه ، بسبب قلة مروءتهم ، لذلك قيل : « الكشك محرم على التنابل » .

وعندما نقول عن رجل انه يعيش ترخنه ، نفترض ان يكون الرجل تنبلاً ليكون خليّ البال فلا يهمه سوى امتلاء بطنه ، وقد

---

(١) يخطيء من يظن ان عبارة: « عايش ترخنه » مرادفة لعبارة : « عايش طرف نمر » التي تعني ان الرجل منيع الجانب موفور الكرامة

يكون المقصود ، اساسا ، بقولنا : « هذا رجل يعيش ترخنه » هو انه تنبل حظي بأكلة كشك .

تنابل السلطان عبد الحميد

والتنابل هم اكثر الناس جذلا واقلهم عملا . هكذا قال العرب قديماً ، وبسبب كثرة مرحهم تغاضى الناس عن قلة نفعهم، وهضمهم المجتمع اجيالاً ، حتى ان بعض الملوك كانوا يستخدمونهم كمهرجين في قصورهم ويأتمنونهم احيانا على حريمهم .

كان هذا شأن التنابل قديماً ، إلى ان طلع علينا كاتب كبير في القرن الماضي بقول مأثور جديد هو ان التنابل اضعف الناس عقلاً واخصبهم نسلاً .

ويروى ان السلطان عبد الحميد تنبه لخطرهم على النسل البشري فعزم على ابادتهم عن بكرة ابيهم ، وعمد إلى خطة بارعة ، فخصص لهم مكانا في ضواحي الاستانة ، واذيع ان المكان معد لاقامة التنابل ، يأكلون ويشربون ويعيشون فيه « ترخنه » .

وما هي الا اسابيع قليلة حتى غص المكان بالتنابل ، الذين توافدوا من شتى انحاء البلاد . فأمر عبد الحميد بحرقهم جميعاً . لكن الصدر الاعظم استدرك قائلاً ، لعل بينهم من هم غير

تنابل ، ولا سيما ان بعضهم يتزيا بأزياء رجال الدين ، لذلك اضرم حولهم نيارين بشكل دوائر حلزونية، بحيث اذا سعى احدهم إلى النجاة وجد اليها سبيلاً ، فيكون عندئذ من غير فئة التنابل ، وهكذا كان فنجا قسم منهم ، بينما ابيد الآخرون .

ومن التعليقات التي رافقت محرقة التنابل هذه ، ان احد التنابل قال لرفيقه ، قبل وصول النار اليهما : « اعطني ولعه لسيكارتي » . اجاب الآخر : «لاحق تولّع بس توصل النار » .

« طَلِعْ قَدّ المَشْنقَة »

يحكى ان عماراً كان يبني قنطرة ، فمرت امامه فتاة جميلة وهي تختال بفستان زاهي الالوان تظهر خلاله تقاسيم جسمها الفتان ، « فتدعثر » العمار وهوى عن القنطرة ومات .

وعندما علمت زوجته بما حدث رفعت شكواها إلى السلطان قرقاش ، وطلبت ان تشنق الفتاة في القنطرة التي سقط زوجها عنها

فأمر قرقاش باحضار الفتاة فقالت ان الذنب ليس ذنبها ، بل ذنب الخياط الذي فصّل لها الفسطان ، بدقة واتقان ، فرفعه من مكان ، وضيّقه من مكان ، فبدا من مفاتن جسمها لعيني العمار ما بدا حتى فقد الاتزان . .

فقال قرقاش : «كفى»، وامر باحضار الخياط فقال هذا ان

المسؤول هو التاجر الذي باع القماش ، لانه شفاف تتخايل تحته الارداف وسائر الاطراف . . .

فصاح قرقاش : «كفى ، اجلبوا التاجر واشنقوه تحت القنطرة »! فقبضوا على التاجر وجاؤوا به ليشنقوه فوجدوه اطول من القنطرة بحيث يتعذر شنقه تحتها ، وراجعوا قرقاش بالامر فقال :«اقبضوا على اول رجل قصير يمر واشنقوه لكي تتأيد العدالة» . فجاؤوا برجل قصير وشنقوه .

وحدث ان صديقاً للرجل مر فرآه معلقاً فقال : « وما هو ذنب هذا الرجل حتى شنقتموه » ؟ قالوا : « ذنبه انه طلع قدّ المشنقة » .

فجرت هذه العبارة مثلا .

* * *

القسم الرابع

رجال وأقوال

فتّشت فلم اجد ألذ من النظر في عقول الرجال
« عمر بن عبد العزيز »

جيل حليب البودرة

سمعت يوماً ولداً يشتم امه . بينما وقفت جانباً امرأة عجوز « تبرّ » . قالت : « هذا جيل حليب البودره ! نسوان هالايام ، بتخلّف ما بتدرّ مثل القرقه « حنيّه بلا دريّه » ، الله يجيرنا متى كبر جيل حليب البودره ! »

آخر الاوقات

من العنعنات المنسوبة إلى كتاب « الجفر » نبوءة عن آخر الاوقات ، اعطيت لها هذه العلامات : — عندما تقل الحشمة عند النساء ، وعندما يتخنّث الفتيان بلا حياء ، وعندما تشرق الشمس في المساء

الشيخ ابراهيم المُنْذِر وأبناء الكَلْب الكِرام (1)

لمناسبة احياء ذكرى الشيخ ابرهيم المنذر :

يحكى ان شابا جاءه يوما يسأله عن كيفية استعمال كلمة « استبدل » ، وكان ذلك في حضور بعض الاساتذة ،منهم العلّامة الشيخ عبد الله البستاني ، فأجاب الشيخ ابرهيم : « هنا الشيخ عبد الله ، فكيف استبدلتني به ، والآية الكريمة تقول : « اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير » ؟ . فاعتبر الحاضرون جواب الشيخ ابرهيم من روائع البلاغة لانه استعمل ، في جوابه ، كلمة « استبدل » في موضعها ، واشهد الآية الكريمة على صحة كلامه .

ويحكى انه سمع الاستاذ بطرس البستاني يتحدث يوماً في موضوع ادبي فقال : « وهذا رابع البطارسة » ، باعتبار

---

(1) نشرت في ملحق النهار عدد ٨ نيسان ٩٧٣

المعلم بطرس البستاني والمطران بطرس البستاني والخوري بطرس البستاني هم سائر « البطارسة » » من آل البستاني وقد كانوا من علماء اللغة واعلام الفضل .

ومعروف ان المعلم بطرس البستاني كان قد اعتنق المذهب البروتستنتي . ويحكى أن الشيخ رشيد الدحداح كان يقول : « الطائفة المارونية لا تحمل بطرسين من آل البستاني : المعلم بطرس والمطران بطرس » ، وذلك كما قيل في ذلك الزمان على لسان الامير بشير الشهابي : « الشوف بيحملش بشيرين ، اما بشير شهاب او بشير جنبلاط » فأجاب الشيخ بشير قائلا : « المكعوم يرحل » .

مع العلم ان الموارنة كانوا يتباهون بالمطران بطرس البستاني ، ومن هنا راجت في ذلك الزمان عبارة منسوبة للمتصرف رستم باشا وهي قوله : « وجدت في لبنان رجلا ونصف الرجل هما المطران بطرس البستاني والامير مصطفى ارسلان » ، ولعل ذلك كان قبل ان تكاملت شخصية الامير الارسلاني فصار في ما بعد رجلا كل الرجل .

يا ابناء الكلب الكرام :

ومن القصص المنسوبة إلى الشيخ ابرهيم المنذر ، ان المصريين كانوا قد درجوا على تسمية انفسهم « ابناء النيل » ، فاقتدى بهم

السوريون وسموا انفسهم « أبناء بردى » . ثم انتشرت العدوى إلى أهالي العراق فسموا انفسهم « ابناء الرافدين » ، اي ابناء نهري دجلة والفرات .

وحدث ان جاء إلى بيروت ، في ذلك الزمان ، فريق رياضي مصري اقيمت على شرفه حفلة تكريم في قاعة احدى المدارس ، فوقف رئيس الفريق المصري ليتكلم بعدما سأل عن اسم اشهر نهر في لبنان ، فقيل له "نهر الكلب" ، واذا به يقول :

« احييكم باسم اخوانكم ابناء النيل ، يا ابناء الكلب الكرام » .

وكان الشيخ المنذر كلما حكى هذه الحكاية يقف عند هذا الحد فلا يتجاوزه ، كأنه يريد ان يترك في ذهن الحاضرين قناعة باستحقاق احدهم ، او بعضهم ، لهذا اللقب الجديد . الا ان احد السامعين سأله يوماً : « ولكن هذه القصة بلا ذنب ! » فقال : « ربما كان الكلب ازعر فبقيت قصته بلا ذنب » .

* * *

« المَكْعُوم يرْحَل »

كنت ذكرت في « ملحق النهار » تاريخ ٨ نيسان ١٩٧٣ اصل المثل الدارج « المكعوم يرحل » فقلت : ان الامير بشيراً كان على خلاف مع الشيخ بشير جنبلاط ، فاطلق قوله المشهور : « الشوف بيحملش بشيرين اما بشير شهاب واما بشير جنبلاط » فأجاب الشيخ الجنبلاطي : « المكعوم يرحل » .

واذا بالصديق الاستاذ جوزف نعمه « يكعمني » في الملحق التالي بتصويب ينسب فيه هذه القصة إلى الامير يوسف شهاب والشيخ يوسف عربيد ابو شقرا — شيخ عقال الدروز في ذلك الزمان — قال الامير يوسف « لا تسع البلاد يوسفين ، اما يوسف شهاب واما يوسف ابو شقرا » فاجابه الشيخ ابو شقرا «المكعوم — او المزروك — يرحل » .

فالى الاستاذ نعمه كل امتنان على اهتماماته بمثل هذه القضايا التاريخية الدقيقة . اما انا فاهتمامي ، على الاكثر ، بكلمة

« مكعوم » ، انها في نظري درة عقد هذه القصة ، فللاستاذ نعمه ان يستبدل من يشاء بمن يشاء من ابطال هذه القصة ، اما كلمة « مكعوم » فلا يحل عليها بيع او شراء .

كما لا يجوز كذلك استعمال كلمة « مزروك » ، بدلا من كلمة « مكعوم » ، لأن العبارة منسوبة إلى احد رجلين من افخم رجال الدروز ، ولا يمكن ان تصدر عن احدهما كلمة غير فخمة مثل كلمة « مزروك » التي لا تستعمل في مواقف الكرامة .

كان المرحوم كامل ابو شقرا يروي لنا قصة قديمة عن رجل من عائلته تلقى رسالة تبدأ بـ : « حضرة فلان ابي شقرا » وتنتهي بـ :« الداعي اخوكم ابو سليمان » ، فمزق الرسالة وقال : « هالقليل الشرف مش مملين عينو بيت بو شقرا ، هو « ابو سليمان » ونحنا « ابي شقرا » لسبد ما توقع عيني على عينو لفرجيه مين الزلمي ومين المرا » . لذلك فليسمح لي رواة القصص التاريخية ان انفي — ارضاء لقدسية الكلمة — ان يكون الشيخ يوسف ابو شقرا قد استعمل كلمة مزروك في هذا الموقف لا سمح الله !

ومع تأكيد اهمية وجمال مثل هذه القصص التي يتألف منها تاريخنا الحديث ، فان الاحاديث تستهويني اكثر من الاحداث، وصيدي الثمين كلمة جميلة سواء نسبت إلى امير من دير القمر او إلى فلاح من ابل السقي .

يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز : « فتّشت فلم اجد الذ من النظر في عقول الرجال » . ولم يقل في جمال وجوههم وكمال اجسادهم . والنظر في عقول الرجال ، كان من قديم الزمان وما زال إلى الآن منشودة الذين يستمرئون طعم الكلمة ، لان الكلمة مرآة العقل .

واستعمال الكلمات الجميلة ليس وقفاً على كبار الكتاب والشعراء ورجال الفكر . المهم ترصيع الحديث بكلمات من معدن كريم ، سواء في ذلك الكلمات القاموسية والكلمات العامية . اذ ان جمال الكلمة في موسيقاها وفي طريقة استعمالها .

سمعت رجلا يدل آخر على مكان قال له : « اذا « طَورقتْ» تصل في نصف ساعة وان « قَودمت » ففي شرب سيكارة على الاكثر» . من تلك الدقيقة صار هذا الرجل صديقي . انهيستعمل القادوميات غالباً في حديثه ، وكذلك في سلوكه ، فيصلبسرعة إلى حيث يريد . ذهبت يوماً ازوره ، وهو يسكن في الطابق الخامس من احدى البنايات ، فنادته ابنته من الطابق الاول حيث كان يزور احد انسبائه ، فحضر يلهث وقال : « المصعد معجوق ، تدحرجت على الدرج » . هذا المتدحرج من تحت إلى فوق — من شدة الشوق — عوّدني على مفاجآته الكلامية .

حدثني يوماً ان اهالي قريته انتخبوه « وفداً » — كذا — فذهب وقابل القائمقام وقال له : « نحن » نحتج على تصرفات الدرك » . من ذلك الوقت صرت اسميه ، بحق ، « قيدوم قومه » .

وفي ذات يوم ذهبت في وفد – ولا اقول ذهبت وفداً كما يقول قيدوم قومه – لنخطب يد فتاة لاحد الاصدقاء ، فاراد والدها ، من قبيل اللياقة ، ان يأخذ رأي زوجته التي شاءت ان « تتمعزز » وقالت : « البنت بعدها صغيرة ، ملحوق على زواجها » . فاحمرت عينا زوجها وتراقص شارباه في وجهه وقال : « الحرمه ، اذا زوجها اخذ رأيها لازم تقول : « انت صاحب الرأي ، ومتل ما بتفصّل منلبس » ، قديش صار لي بعلمها تحكي حكي كبير بعدها بتحكي حكي صغير » .

ومنذ نشأت عندي لذة النظر في عقول الرجال ، صرت اتمرّس بارتجال الكلمات الخلابة ، على امل ان يبادلني الناس بمثلها . وحدث يوماً ان قوطب عليّ شيخ مكمّل في عرض الشارع وسألني اين يقع شارع بدارو . قلت له : « اركب في هذه التراموای واسأل الذين فيها اين تنزل » . قال : « وهل يبعد كثيراً عن وزارة المير ؟ » – ولعلمي انه يعني وزارة الدفاع المعقود لواؤها يومئذٍ للامير مجيد ارسلان – قلت : « يا قناق يا قناقين » ولفظت « القاف "مفخمة كما يلفظها اقحاح الدروز ، فانشرح خاطر الشيخ وقال : « الله لا يخلينا من نخوة بني معروف » .

وسمعت رجلا في احد الايام يطلب من ابنائه ان «يترقرقوا» وذلك في كلامه عن الدماثة والمرونة ولين العريكة ، قال : « ترقرقوا ! بتمرقوا من خروم الشبك » . من ذلك الوقت

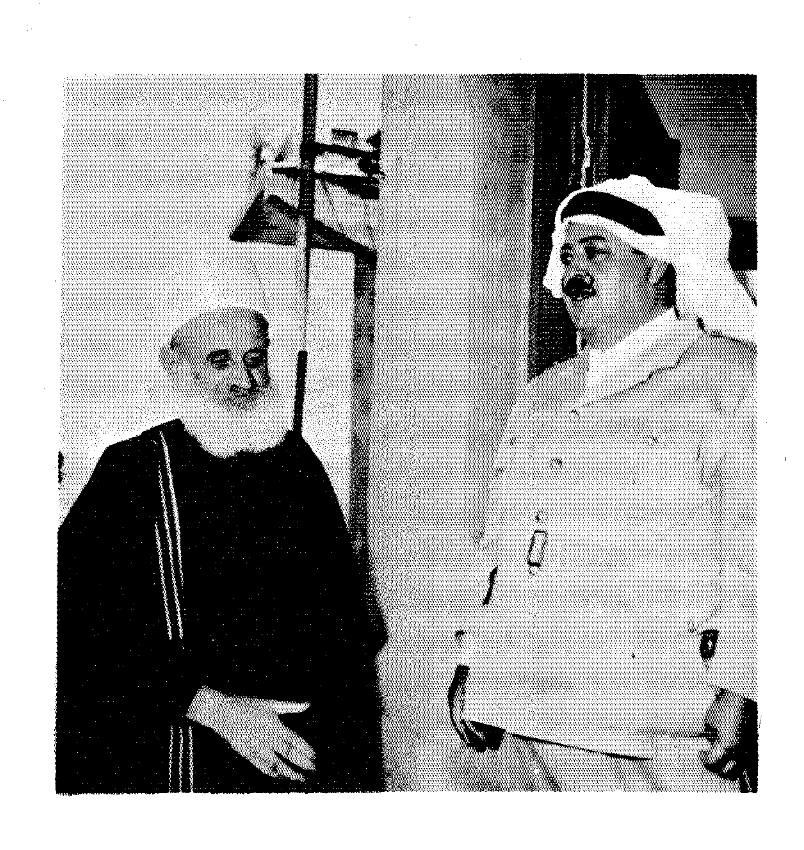
صرت احاول دائماً ان اترقرق في كلامي وفي سلوكي مع الناس ، فأمرق من خرم الابرة اذا لزم الامر .

ثم نقلت حديث الرقرقة هذا إلى الشاعر المرحوم فؤاد جرداق ، الذي كان يعرف اطيب مذاقات الكلام ، فقال ان اعذب الكلمات العربية لفظاً ، ما اقترنت فيها « القاف » المفخمة « بالراء » المرخمة مثل كلمة « ترقرق » ، لذلك قيل ان اعذب بيت من الشعر تداولته السنة العرب قول الشيخ ناصيف اليازجي :

اذا رق الحبيب وراق معنىً له رق الهوى ورقى وراقـا

ويروى ان رجلا من احدى قرى الشوف ادعى على جماعة من قريته انهم تسللوا ليلا واقتطعوا بعض النصوب من بستانه . وفي المحكمة سأله القاضي ، كيف حصل الاعتداء ، فانتفض وقال : « لا لا يا حضرة القاضي ، اللي بدّو يعتدي علينا بعدو ما خلق ، القضيه قضية تخريب لا اكثر ولا اقل » .

وبعد ، فالذي يعاشر معاشر الدروز يلاحظ حرصهم على تهذيب الفاظهم وانتقاء العبارات الفخمة الجميلة في مخاطباتهم ، وكثيراً ما تضوع من كلماتهم روائح تقاليدهم ومعتقداتهم .



أَجَلَ! شَيْخ درزي مِن بْعَقلين

الدكتور سعيد حماده ، احد كبار علماء الاقتصاد في هذه البلاد ، يحتفظ لنفسه بلقب المشيخة ، مع العلم ان آل حماده الدروز ، مثل آل حماده الشيعة ، هم من مشايخ البلاد عن حق وحقيق .

والمشيخة عند الدروز لها مقومات خاصة ، منها الحكمة والرزانة والوقار ، وقد قرن الدكتور سعيد حماده مزاياالمشيخة بمزايا الرجل العالم ، فاستحق ان يكون عن جدارة : الشيخ الدكتور سعيد حماده .

في صيف سنة ١٩٦٧ ، بعد نكسة حزيران المعروفة ، تلك السنة ، عقد في بغداد مؤتمر لوزراء المال والبترول العرب ، في جو سياسي حار ، سبقته مطالبة بقطع البترول العربي عن الغرب وسحب الودائع العربية من بنوكه .

وكان الدكتور حماده ، يومئذٍ ، وزيراً للاقتصاد ،

فاستدعاه فخامة رئيس الجمهورية وقال له : « سنرسلك إلى بغداد لتمثيل لبنان في مؤتمر وزراء المال والبترول العرب ، فلا تنس ، قبل كل شيء ، انك شيخ درزي من بعقلين ، وفهمك كفايه ! »

هذا ما كتبته في مذكراتي ، في وقت سابق ، حسبما تناهى إليّ عن السنة الناس . واحببت مؤخراً ان اعرضه على موافقة الدكتور حماده فقال : « اكتب ان فخامة رئيس الجمهورية استدعاني وقال لي : « سنرسلك إلى بغداد ، لتمثيل لبنان في مؤتمر وزراء المال والبترول العرب ، بصفتك وزيراً ودكتوراً في الاقتصاد ، ولكن لا تنس انك شيخ درزي من بعقلين وفهمك كفايه » .

واضاف الدكتور حماده قائلاً : « هكذا يقترن علم العلماء بحكمة الحكماء ، وهو ، لا شك ، ما اراده فخامة الرئيس عندما كلفني بهذه المهمة » .

* * *

« وليس على الشمس ان تبصرا »

كان محمود سامي باشا البارودي شاعراً ومجاهداً ، وفي اواخر ايامه فقد بصره ، فآساه خليل مطران بقصيدة منها البيت التالي :

على الشمس ان تهدي المبصرين وليس على الشمس ان تبصرا

«بِوْلادْنا وَلاَبِـبْلادْنا»

عندما نشرت كتاب « لئلا تضيع » لم أكن اتوقع ان تبادر نخبة من الادباء والمفكرين إلى مطالبتي باصرار ، بالمزيد من القصص والاخبار ، مثل التي احتواها كتابي المذكور ، وإلى مؤازرتي في تقصي الحقائق واستكمال النواقص لكي يتم الحاق الكتاب بآخر في اقصر وقت ممكن .

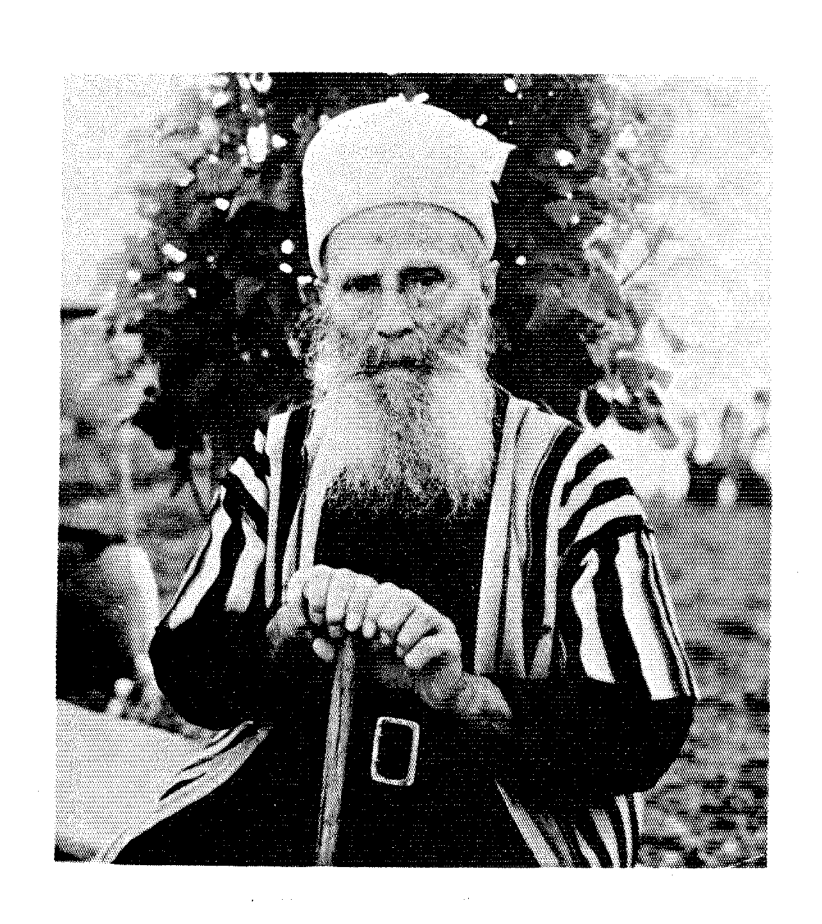
وفي نطاق هذه المبادرات الطيبة ، نشرت مي منسى في جريدة النهار بتاريخ ٧٢/٧/١٠ مقالا موضوعه : شيخ درزي قال للباشا : « بولادنا ولا يبلادنا » من هو ! من يعرف ؟ . وبالنظر لاهمية المقال وللنتيجة التي اقترن بها ، آثرنا نشره هنا مع أحد الردود عليه بتوقيع ج.ح. في جريدة النهار بتاريخ ٧٢/٨/٦ .

وقد طرحت مي منسى على الناس ، في مقالها هذا ، قصتين من قصصي غير المكتملة ، تحتاج كل قصة منهما إلى

اسم بطلها الحقيقي حتّى تكتمل . القصة الثانية سمعنا بعض التعليقات عليها الا انها بقيت يتيمة غير مكتملة ، اما القصة الاولى ، وهي قصة الشيخ الدرزي الذي قال لمحمد علي باشا : « بولادنا ولا ببلادنا » فقد قيلت ونشرت اشياء كثيرة عنها ، وعلق عليها كثيرون كان كل واحد منهم ينسب هذا القول المأثور إلى جده .

إلا ان طبيباً معروفاً في بيروت اتصل بالسيدة منسى وقال ان صاحب هذا القول هو ناصيف بك نكد ، لذلك كان علينا ان نتوجه إلى العلامة عارف بك النكدي مستفسرين ، وعند جهينة الخبر اليقين . وسننشر رأي الاستاذ النكدي ، بعد مقالي السيدة منسى والسيد ج.ح . وهو فصل الخطاب .

* * *



« بولادنا ولا ببلادنا »

شَيْخ درْزي قـال لِلبَاشَـا

« بولادنا ولا بيلادنا »

من هو ؟ من يعرف ؟

بقلم : مي منسى

حكايات من الواقع نسجت ومن السنة الناس . والناس بعضهم ماتوا والبعض شاخوا وهرموا وذبلت في ذاكرتهم الاحداث . وقصصهم تحتاج إلى من يرد اليها لمعانها ورونقها وتاريخها ويجمع هيكلها ، اذ نتفتها الايام وبعثرت نتفا منها وغابت نتف في مهاوي النسيان .

سلام الراسي الذي عاش في محيط درزي واندمجت قيمه في القيم الدرزية ، وتأثر بمفاهيم الدروز الذين اعطوه اسلوباً في التفكير ، بقي عشر سنوات يحصد القصص والطرائف والاقوال اللبنانية التي حورها الزمن والتهم منها اجزاء وشردها حتى أمست « من كل واد عصا » ، ثم نسقها في كتاب سماه « لئلا تضيع » .

هذا الكتاب الذي خطه بقلم ابن الضيعة ثروة من القصص الشعبية والاقوال الدارجة والطرائف والاساطير ، اضافة إلى بضع من الحقائق التاريخية ، خشي سلام الراسي ضياعها مع تطور المفاهيم في لبنان فراح ، إلى جوار عمله يتنقل من غريفه إلى بنت جبيل ، ومن ابل السقي إلى سكان شارع الحمرا الاقدمين ، ومن رجل هرم إلى آخر يستقي ويسأل عن قائل هذه الردة او ذلك المثل . ويبحث عن قصة المثل او عن مثل القصة ، وهو قاسى مشقات بغية جمع المعلومات وكما يقول : « هذا العمل الشاق الذي افعله كان على مؤسسة رصينة القيام به فتشغل جماعة من الناس مهمتهم الانصراف لجلب المعلومات وتكون خدمت تراثاً من تراثات لبنان اجل خدمة » .

ولدى سلام الراسي مجموعة احاديث واحداث اكبر واغنى من الاولى . مئات القصص في جعبته انما ليست مكتملة ، سيعطيها جزءاً كبيراً من حياته لتصير كتابا ثانيا تابعاً « لئلا تضيع » . فالمعلومات التي لديه الآن ، ولو انها مكتنزة ، ينقصها ذلك الشيء الصغير الذي يثبت واقعيتها .

قال : عندما صدر **الجزء الاول** تبرع لي بعض من قرأوه بمعلومات سجلتها في اهتمام كبير بعدما تأكدت لي صحتها وستنشر في **الجزء الثاني** .

ويعطي مثل فرن الحمرا منذ نصف قرن ونيف ، وكانت

الجنيات يأتين اليه عندما يخلو من صاحبه ويخبزن فيه خبزهن .

ولجأ سلام الراسي إلى المسنين الساكنين في الحمرا والذين عاشوا اساطيرها يطلب منهم ان يدلوه على اسم صاحب الفرن ، ولم يتوفق الا مع صدور الكتاب عندما جاء من يتبرع له به .

قصتان من واقع القيم اللبنانية كلتاهما من جملة ما ينوي المؤلف نشره في **الجزء الثاني** من اساطير وامثال وقصص ، وتحتاجان إلى بعض التفاصيل لتكتملا . وتروي اولاهما عن الامير بشير الشهابي انه لما تولى امارة جبل لبنان ذهب إلى مصر وعقد معاهدة سرية مع والي مصر محمد علي باشا . وصار يرسل طلابا لبنانيين للتخصص في الجامعات التي كانت غاية في الرقي .

ومن سنوات قام ابرهيم باشا ابن محمد علي باشا بغزوة لبلادنا في ١٨٣١ فوقف الدروز في جانب السلطنة العثمانية ، وحاربوا ابرهيم باشا في ضراوة حتى الموت .

ولما انكسر الدروز شكلوا وفداً وراحوا إلى القاهرة ليعلنوا ولاءهم لمحمد علي في رئاسة احد آل جنبلاط . ولما اعلن رضاه عنهم سأله احدهم قال : «قبل غزوة ابنكم ابرهيم باشا لبلادنا منذ سنوات ، جاء ابني مع شبان متعددين إلى القاهرة ليتلقى العلم ، ولكن انقطعت اخباره في اثناء الحرب وآمل انتساعدوني في البحث عنه » .

فاستغرب محمد علي باشا وقال للشيخ الدرزي : « كيف اقدمتم على اعلان العصيان على ابني وجيشي ومحاربتنا واولادكم موجودون عندنا » .

فأجابه الشيخ : « بولادنا ولا ببلادنا يا باشا » .

وسلام الراسي يبحث عن اسم ذلك الشيخ الدرزي صاحب هذه العبارة .

والثانية قصة ذلك الرجل الذي كان دوماً يعارض سياسة المتصرف . ولما استبدل هذا بآخر قالوا له : لماذا لا توالي المتصرف الجديد الذي يقال ان سياسته سلبية ؟ فقال الرجل (ويعتقد ان يكون الشيخ رشيد الخازن) « اذا ارتاحت المتصرفية تعبت الرعية » .

حقائق لبنانية يستحرم سلام الراسي ضياعها ، ويكون سعيداً لو وجد من دله عليها .

قصتان تحتاجان إلى اسمين فمن هما يا ترى ؟

من قالها للباشا ؟ جدّي أو جدّك ؟

بقلم : ج . ح

اي شيخ لبناني قال لمحمد علي باشا : « بولادنا ولا ببلادنا » ؟ وهو سؤال كانت مي منسي طرحته عبر الصفحة الثقافية .

والقصة لازمة للجزء الثاني من كتاب « لئلا تضيع » لسلام الراسي ، وكثيرون علقوا وحللوا وتبرعوا بالقول ان جد كل واحد منهم هو رد على محمد علي باشا بذلك القول المأثور .

ويبدو ان القصة تكاد تكون معروفة ولها جذور تاريخية واضحة . فان الامير بشيراً الشهابي كان عقد معاهدة صداقة مع والي مصر محمد علي باشا ، وكان يرسل سنوياً ، بموجبها عدداً من الطلاب اللبنانيين ، لتلقي العلم في جامعات مصر .

وحين غزا ابراهيم باشا ، ابن محمد علي باشا ، بلادنا وقف الدروز في جانب الدولة العثمانية وحاربوا ابراهيم باشا في شدة ،

الا انهم شعروا بتخاذل العثمانيين امام ابراهيم باشا ، فارادوا ان يتداركوا الموقف وارسلوا وفداً من زعمائهم إلى مصر بغية مفاوضة محمد علي باشا .

وبعد التفاهم معه طلبوا منه ان يساعدهم في العثور على عدد من الطلاب اللبنانيين انقطعت اخبارهم في مصر ، اثر غزوة ابراهيم باشا للبنان ، فقال محمد علي باشا : « ما دام اولادكم عندنا فكيف تجاسرتم على محاربة ولدنا ابراهيم » ؟ فقالوا : « نحن الدروز من تقاليدنا ان نقول في مثل هذا الموقف : « بولادنا ولا ببلادنا » .

فليس من المفروض ان ينسب هذا الشعار إلى رجل واحد من اعضاء ذلك الوفد الذي تألف من اكابر زعماء الدروز لذلك الزمان مثل : نعمان جنبلاط واحمد جنبلاط وخطار العماد وناصيف نكد ويوسف عبد الملك وحسين تلحوق وفارس العيد وحمود عطاالله وغيرهم ، كما جاء في كتاب « الحركات » لحسين ابو شقرا .

وهذا الشعار معروف ، عند بني معروف ، قبل ذلك ، اذ روى حسين ابو شقرا في كتابه ، ان الجزار كان ارسل جيشاً من الانكشارية إلى قريتي شحيم وعانوت ، فاغار الشيخ بشير جنبلاط برجاله وفتك بعسكر الجزار وطردهم من الشوف . وكان والده الشيخ قاسم جنبلاط اسيراً لدى الجزار في عكا ، فلما همّ بالاغارة على عسكر الجزار لامه بعضهم وحذروه

من هلاك والده فاجابهم : « بوالدي ولا ببلادي » .

هذا اقرب الاحتمالين إلى الواقع في هذه القصة . والقصة الثانية التي طرحتها مي منسى ، لم يتقدم احد إلى الان ، على ما نظن ، فيزعم ان المرحوم جده هو بطلها . وهي عن زعيم لبناني ، مجهول الاسم ، كان يناوىء المتصرفية ويضع لها المتاعب والعراقيل . وكان يقول للمقربين اليه : « اذا ارتاحت المتصرفيه بتتعب الرعيه » . اي ان الحكومة اذا انشغل بالها تلهت بمشاكلها فترتاح الرعية . لذلك يجب ان تبقى الحكومة تعبانة حتى يرتاح الناس ، وهو دستور عمل سياسي ، يعتنقه لا شك ، بعض رجال السياسة في كل زمان ومكان ، لكنهم لا يجاهرون به .

ولا ينتقص ذكر هذه الحقائق من قيمة الجهود التي يبذلها سلام الراسي في نبش هذه القصص ، « لئلا تضيع » .

التوقيع ج.ح.

وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ

يقول الاستاذ النكدي ، بحصافته المعروفة ، ان اكثر قصصنا الشعبية ، ولا سيما ما يتعلق منها بالكرامات والبطولات مبالغ فيها او مشكوك بأمرها . فبعد وقوع اي حادث تاريخي ، وفي اعقاب اي حديث هام ، يريد كل من كان له علاقة بالموضوع ان ينسب إلى نفسه شرفاً ، هو غالباً ، من نسج خياله ، فيروي امام الناس انه فعل ، ما كان في الواقع يتمنى لو انه فعل ، ويقول انه قال ، فعلا ، ما كان ربما في نيته فقط ان يقول ، ثم يتناقل الرواة اقواله فيزيدون عليها من خيالهم ما وسعت ايمانهم .

وعليه — يضيف الاستاذ النكدي — يغلب الشك بصحة هذه القصة كما روتها الرواة .

وهكذا تبقى هذه القصة ، حتى الان ، من القصص اليتيمة .

لكن يبدو من حديث الاستاذ النكدي ان الزعماء الدروز الذين حظوا بمقابلة محمد علي باشا هم : نعمان جنبلاط وخطار العماد وناصيف نكد ، بدليل انه انعم على هؤلاء الثلاثة فقط بلقب « بك » — دون سواهم من الزعماء الذين رافقوا هؤلاء الى مصر — وقد توارثت عائلات جنبلاط وعماد ونكد القاب البكوية حتى الآن . في ذلك الوقت كان نعمان جنبلاط وخطار العماد ما زالا شابين ، في حين كان لناصيف نكد يومئذ ، ابن اسمه عباس يدرس في الجامع الازهر في مصر ، ومن هنا نشأ الاعتقاد ان ناصيف نكد هو بطل هذه القصة .

* * *

الدنيا مرآة الآخرة

في ذاكرتي بيتان من الشعر كنت لا اذكر لمن . وعندما جيء برفات الشيخ سعيد تقي الدين كنا في عداد المشيعين الى مثواه الاخير في بعقلين ، حيث واراه جدث عمه الشاعر امين ، فاذا بهذين البيتين يطلاّن علينا من على رتاج القبر وهما :

الى هنا تنتهي الدنيا بصاحبها فلا خلود له الا بذكراهُ
فارقت دنياي لم أجزع لآخرتي فالمرء دنياه مرآة لأخراهُ

الحِمَار مَركُوب الأجَاوِيْد وَالْعُقَّال

يعرف عن اجاويد الدروز زهدهم في متاع الدنيا ، وعزوفهم عن الكبرياء ، واعراضهم عن المجد العالمي ، لذلك يفضلون في اسفارهم ركوب الحمار ، وقلّما شوهد احدهم على ظهر جواد ، لما في ذلك من مظاهر الاعتداد .

ويروي رجل دين محترم عاش سنوات طويلة في حاصبيا ، انه كان قد اقتنى دابةً يركبها في غدوّه وايابه بين قرى المنطقة . وفيما كان عائداً ذات يوم اعترض سبيله شاب وقال :

— مالك ولهذه الدابّة ، فمثلك من تليق به الجياد الاصيلة ، فقد قيل للجمل من انت ؟ قال : حامل الاثقال . وللحصان من انت قال : مقتحم الاهوال . وللحمار من انت قال : مركوب العجائز والاطفال .

فاجاب رجل الدين :

— ولكنني رجل دين ، وحسبي ان اقتدي بسيدي المسيح

الذي ركب على حمار ابن اتان ولم يركب قط على حصان .

فسكت الشاب ومضى .

وفي اليوم التالي طرق الشاب باب رجل الدين وقال : « اخبرت والدي الشيخ بما دار بيني وبينكم امس ، فخطّأني وطلب مني ان اجيء اليكم الان معتذراً عما بدر مني ، وان اروي لكم المثل على حقيقته ، كما رواه لي والدي :

– قيل للجمل من انت قال : حامل الاثقال . وللحصان من انت قال : مقتحم الاهوال . وللحمار من انت قال : مركوب الاجاويد والعقّال .

* * *

خبر كاذب

نشرت احدى المجلات البيروتية ، رسما كاريكاتوريـــا للمتصرف واصا باشا – ولم يكن فن الرسم الكاريكاتوري معروفاً عندنا ، ذلك الزمان – فأحيل صاحب المجلة الى المحاكمة ، لأن الحكومة اعتبرت الرسم بمثابة نشر خبر كاذب ، لأن راسمه جعل أنف المتصرف اكبر مما هو ، وزاد في ضخامة بطن المتصرف ، والبسه جبة ليس من عادته ان يلبس مثلها .

الدِّين وَالدُّنْيا

تعتبر مدرسة « عين ورقة » في كسروان ، طليعة المدارس الوطنية في القرن الماضي . فيها تفتقت طاقات عدد من اعلام الفكر والدين والادب ، وشهد بفضلها على اللغة العربية كثيرون من المؤرخين ، وحسبنا ان نذكر في عداد تلاميذها : المعلم بطرس البستاني ، واحمد فارس الشدياق والشيخ رشيد الدحداح والعلامة المطران يوسف الدبس ، وعدد كبير من بطاركة واساقفة الطائفة المارونية . ويعود فضل انشاء هذه المدرسة إلى رجلين كبيرين : البطريرك يوسف اسطفان والشيخ غندور السعد .

حتى سنة ١٧٨٩ كانت مدرسة « عين ورقة » ما زالت ديراً على اسم القديس انطونيوس ، يملكه آل اسطفان الذين أنشأوه من اموالهم الخاصة وجعلوه ديراً للراهبات كان يضم ، عند تحويله إلى مدرسة ، ثماني راهبات فقط جرى توزيعهم

على بعض الاديرة . وتعزى هذه المبرة إلى البطريرك الماروني يوسف اسطفان ، الذي اقنع ابناء عائلته بالتنازل عن ملكية الدير الذي صار ، اولا ، مدرسة اكليركية ، ثم غدا معهداً ثقافيا عالياً يضاهي ارقى الكليات الاوروبية في ذلك الزمان .

اما الشيخ غندور السعد ، جد آل السعد ، ومدبر الامير يوسف الشهابي ، وقنصل فرنسا العام ، واكبر زعماء النصارى في ذلك الوقت ، فهو الذي حرض البطريرك يوسف اسطفان على تحويل دير عائلته إلى مدرسة .

وقد حظينا في كتاب ، « سلسلة بطاركة الطائفة المارونية » برسالتين من الشيخ غندور إلى البطريرك الاسطفاني بهذا المعنى وقد جاء في احداهما ، حرفياً ، ما يلي :

« بدنا نفهم ، يا ليت شعري ، ما هي الافادة اذا راحوا ثمان راهبات من عين ورقة إلى السماء . وكان اكليرس ينوف على ثلاثة الاف لا يصححوا قراءة الانجيل . اي هو اشرف في حق سيادتكم ، خير عام إلى جمهور طائفتكم وذكر مخلد ، وافادة لا يحصى عددها ، او اقامة ثمان راهبات في عين ورقة ؟ . بيكون معلوماً لديكم ، ورحمة الحاج سعد ، والدي ، ان ما هي بمرام منا ولا نية مفسدة ، بل نيتنا مجردة لقيام شرفكم ونمو الطائفة في ايام رياستكم ... » .

شبيني قيصر روسيّا

منذ سنة ١٧٧٤ اعطيت روسيا حق رعاية حقوق الارثوذكس في بلادنا ، بموجب معاهدة عقدتها مع السلطنة العثمانية لهذه الغاية ، لذلك عندما نشبت الحرب سنة ١٩٠٥ بين روسيا واليابان ، قرع الارثوذكس اجراس كنائسهم وهرعوا اليها يتضرعون .

واقيمت ، يومئذ ، لنصرة القيصر ، عدة مظاهرات في المدن والقرى التي يكثّر فيها الارثوذكس ، وانتظمت في بلدة أميون عاصمة الروم حفلة خطابية القى فيها الشاعر ملحم الاشقر من كفرحزير قصيدة عامرة مطلعها :

الخيل بنـا تمشي خببـا   في الحرب وقد زادت طربا
كتب الرحمن لنا ظفـراً   لن يكتب بعد ، ولا كتبا

ويروى ان احد خطباء الحفلة دعا إلى الجهاد حتى يتحقق

النصر باذن الله ، وفي اليوم التالي جاء من يخبره ان روسيا انكسرت ووافقت على الهدنة ، فقال : « تصطفل روسيا ، نحنا ما منوافق » .

والواقع ان روسيا القيصرية ، او دولة المسكوب – نسبة إلى موسكو – كانت تستحق محبة الارثوذكس في بلادنا ، لانها وفّرت لهم اسباب الكرامة ، وحمت شعائرهم ومعتقداتهم ، وفتحت لهم المدارس ففتحت امامهم آفاق العلم ، ورفعت الاجراس فوق كنائسهم فرفعوا رايتها في قلوبهم .

بالاضافة إلى هذا كله ، فان القيصر الذي كان في بلاده ظل الله على الارض ، تواضع وقبل ان يكون « اشبينا » اي عرابا لعائلة بسترس الارثوذكسية المعروفة ، وفي ما يلي تعريب رسالتين بهذا المعنى :

من بطرس برج في ٩ تموز ١٨٨٠

إلى مسيو سليم دي بسترس

(١) ايها السيد

يروق لي ان اعلمك ان جلالة الامبراطور اسكندر الثاني ، ولي نعمتي المعظم ، تعطف ، بناء على التماسك ، باعطاء الرخصة ، بحمل ابنك المولود على جرن المعمودية ، باسمه الشريف ، فاقبل ايها السيد تأكيد اعتباري التام .

التوقيع : الكونت الدلبرغ

(٢)　إلى مسيو سليم دي بسترس

ايها السيد

لما كان جلالة الامبراطور قد تعطف ان يكون عرّابا لابنك اسكندر ، اراد ان يمنح مدام بسترس قطعة للصدر مرصعة بالماس والياقوت ، علامة لعواطفه العالية ، ويسرني ان ارسل لك هذه الهدية ، لفاً ، واغتنم هذه الفرصة بأن اقدم لك ايها السيد تأكيد اعتباري الفائق .

التوقيع : لو بانوف

ويبدو ان بعض الارثوذكس في بلادنا حسبوا « شبشنة » القيصر لآل بسترس ، لا شرفاً للطائفة فحسب بل بمثابة « شبشنة » لهم جميعاً . بدليل وجود قصة طريفة وهي ان رجلا مثل امام احد القضاة الذي سأله عن اسمه ، فقال : « اسمي نقولا ، بيي اسكندر ، أمي هيلانه ، وشبيني قيصر روسيا ، وبصلّب بالتلاته » .



الياس غطاس ، رائد برتستنتي من القرن الماضي

« بوُ - كيم - دِزْ - يَاهوُ - زعربْ ؟ »

دعي رجل من احدى قرانا ، بصفة شاهد ، إلى احدى المحاكم ، فسأله القاضي عن اسمه ، وعن اسم ابيه وامه وتاريخ ومحل ولادته ، ثم سأله ، « متعلم او امي » ؟ فأجاب الرجل باعتداد : « داعيك برستنت ، والانجيل بجيبتي ! » .

كان ذلك في عهد العثمانيين ، في ايام المد البروتستنتي ، وكان يومئذٍ على معتنقي المذهب الجديد ان يحملوا الانجيل في جيوبهم ، ولذلك سموا انفسهم « انجيليين » ، لان شعارهم كان « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم » ، فصار عليهم لذلك ، ان يتعلموا القراءة ، ليتمكنوا من درس الانجيل ، وحفظ اكثر آياته غيباً ، للاستشهاد بها عند الحاجة .

هذا مع العلم ان اكثر الذين اعتنقوا المذهب البروتستنتي ، في ذلك الزمان ، كانوا قبلا ، من ابناء الطوائف الاخرى الذين تتلمذوا في مدارس الارساليات الاميركية والانكليزية ،

فصاروا انجيليين بنتيجة دراستهم في تلك المدارس . ولذلك ندر وجود اميّين بين جماعة البروتستنت .

ومما يروى ان الدكتور جورج فورد – احد مشاهير المرسلين الاميركيين إلى بلادنا في القرن الماضي – قال يوماً : « انا ذاهب غداً إلى القرية الفلانية ، لانشىء فيها مدرستين . فسأله السامعون : « وكيف يكون ذلك ؟ » . قال : « لا شك ان الارسالية الفرنسية ، عندما تعلم غداً انني انشأت مدرسة اميركية في تلك القرية ، ستبادر هي بدورها إلى انشاء مدرسة فرنسية ، فأكون بذلك قد انشأت مدرستين .

ومن اخبار ذلك الزمان ، ان العثمانيين كانوا يحتفلون سنوياً بعيد جلوس سلطانهم على عرش الاستانة . وفي هذه المناسبة كان على كبار زعماء السلطنة ان يؤكدوا ولاءهم وصدق اخلاصهم ، بتوجيه برقيات التهنئة إلى الباب العالي ، وتكون التواقيع غالباً ، « عبدكم المطيع فلان » .

واراد السلطان عبد الحميد ، في احدى هذه المناسبات ، ان يقف على مضمون برقيات التهنئة المرفوعة اليه ، فجيء بها ، واخذ الصدر الاعظم يقرأها تباعاً حتّى وصل إلى البرقية التالية :

« الله يحفظ السلطان »

بيروت التوقيع : زعرب

فانتفض عبد الحميد وصاح : « بو — كيم — در — ياهو زعرب ؟ » اي ، من هو هذا زعرب ؟

ولكن الصدر الاعظم كان كذلك لا يعرف شيئاً عن زعرب هذا ، ومثله كان وزير الداخلية ومكاتب الاستخبارات فأحيلت البرقية على والي بيروت للتحقيق والافادة بسرعة .

وفي بيروت تبين ان صاحب البرقية هو اسعد زعرب . فاستدعاه الوالي وسأله بأي صفة اقدم على توجيه هذه البرقية ، الخالية من اصول اللياقة ، إلى جلالة السلطان .

قال : « بصفتي امثل طائفة البروتستنت في هذه البلاد »

فسأله الوالي : « وكم هو عدد ابناء طائفتك ؟ » .

اجاب : خمسماية وعشرون رجلاً لا يوجد بينهم رجل واحد غير متعلم ، لذلك فاننا نعني ما نقول ولا نضمر غير ما نكتب .

* * *

عبّر احد شعراء الزجل عن مفهومه للصفات التي تميّز كل طائفة في لبنان بما يلي :

النصراني ، إن صاروا ملاح	رزقاتو ، بيقعد يرتاح
والسنّي بيروح يحج	حتى يصير من الصلاّح
والمتوالي بيتجوز	والدرزي بيستقني سلاح

حتّى يرتاح بال الخوري

منذ سنوات قليلة خلت ، نشر مفكر لبناني معروف كتابا في موضوع ديني خاص . فقامت ضجة كبرى حول الكتاب ، في اوساط رجال الدين ، وهو ما حدا بالكاتب إلى اعادة طبعه ، بعد ان حوّر وبدّل بعض ما جاء فيه ، وعندما سئل عن السبب اجاب : « حتّى يرتاح بال الخوري » واردف يقول :

ان مغترباً لبنانياً عاد من اميركا إلى قريته ، بعد غياب طويل ، فأخذ الناس يتوافدون للسلام عليه ، وطفقوا في احد الايام يحدثونه عن الانجازات التي تحققت في القرية ، اثناء غيابه ، ولا سيما ، استعمال الباطون المسلح وبناء البيوت من طابقين او ثلاثة .

وسأله احد الحاضرين ، بالمناسبة ، عن بيوت اميركا وعن عدد الطوابق فيها ، فضحك وقال : « ألم تسمعوا حتّى الان

بناطحات السحاب التي يزيد عدد طوابقها عن مئة طابق » .

فقهقه الحاضرون وقالوا : « وكيف يصعد سكان الطابق المئة إلى بيتهم ؟ » فقال : « بالاسنسار » . قالوا : « وما هو هذا الاسنسار ؟ » ، قال : « الاسنسار عبارة عن غرفة صغيرة في وسط البناية تتحرك صعوداً ونزولا حسب الطلب ، ويكفي ان تدخل اليها وان تكبس زراً معيناً فيها ، فتصعد بك إلى حيث تريد » .

فنظر الحاضرون ، بعضهم إلى بعض ، وقالوا في سرهم : « يا ضيعان عقلاتو » وصاروا « يتندرون » بقصة الاسنسار في مجالسهم مؤكدين ان الرجل ، ولا شك ، فقد صوابه ، وصاروا يسمونه « بواسنسار » .

وبلغت اخيراً قصة الاسنسار مسامع خوري الضيعة ، فقال : « ان الرجل كريم الاخلاق لطيف المعشر ، ويؤسفني ما سمعت عنه ، لذلك يجب ان اتحقق بنفسي جلية الامر » .

وتوجه الخوري بالحال إلى بيت الرجل ، واخذ يسأله ، مداورة ، عن بلاد المهجر وعن البيوت فيها ، وسأله عن عدد الطوابق التي تتألف منها تلك البيوت ، فقال الرجل : « انها شبيهة ببيوتنا ، وتتألف غالباً من طابق واحد ، واحيانا من طابقين او ثلاثة » .

فقال الخوري : « وكيف يصعدون إلى الطوابق العليا ؟ » .

قال الرجل : « انهم يصنعون سلالم من خشب ، كما نصنع نحن في هذه البلاد واحيانا يصنعون ادراجاً من الحجارة » .

وعبثاً حاول الخوري ان يستدرج الرجل إلى ذكر الاسنسار وباءت مداوراته بالفشل . وعندما فرغ صبره قال : « بالله اخبرني ما هي قصة الاسنسار الذي تحدثت عنه امام بعض الاخوان في ليلة سابقة » ؟

فضحك الرجل وقال : « انها مزحة مزحناها مع الاخوان ولا يجوز ان نمزح معك ايها المحترم » .

فانفرجت عندئذٍ اسارير الخوري وقال : « ريّحتلي بالي الله يريّح بالك » .

هذا ويؤكد صاحب القصة انها حقيقية ، ويذكر اسم المغترب ، واسم قريته ، لكنه يختم القصة بقوله ان الخوري قال للرجل اخيراً : « الجماعة أتهموك بالجنون ، لكن يظهر انك انت العاقل وهم المجانين » . فما كان من الرجل الا ان جمع حوائجه للسفر مجدداً ، وعندما سئل قال : « انا لا اريد ان أعيش في هذه البلاد ، اما مجنوناً بين عقلاء ، واما عاقلاً بين مجانين ! »

فَلِّتْ قَمَرْنا يَاحُوت

حدث يوماً خسوف ، فهب بعض اهالي راس بيروت إلى قرع الطبول ونقر الدفوف ، وانطلقوا في مسيرة وهم يهتفون : « فلّت قمرنا يا حوت » ... واختلطت الصلوات والابتهالات بزخات متقطعة من الرصاص ، حتى جفل الحوت ونجا القمر من الهلاك . وحدث ان رجلاً اميركياً مرَّ في المكان ورأى وسمع واعتبر .

وبعد سنوات عدة عاد الرجل إلى بلادنا على موعد مع خسوف آخر وشيك الوقوع ، وشد ما كانت خيبة الرجل عندما « مر القطوع » على القمر ، بدون قرع طبول ونقر دفوف ... ولا من يحزنون . وعندما سأل قيل له : « لم يبق بيننا من يؤمن بمثل هذه السخافات » . فحزن جداً وقال : « ألى هذا الحد تنكرتم لاجمل ما عندكم من شعائر وتقاليد وماذا يبقى من جمال الشرق إذا جردتموه من اساطيره وخرافاته ؟ » .

اما العلامة منصور جرداق ، استاذ علم الفلك سابقاً في الجامعة الاميركية في بيروت ، فقد كان له رأي آخر بالموضوع. كان يحاول ان يضعنا في مناخات العلم والمنطق . يحكى انه ألقى يوما محاضرة في الجامعة بموضوع علم الفلك ، فهم منها بعض المستمعين ، ان علم الفلك لا يوجب افتراض وجود إله تجري الكواكب حسب مشيئته ، فاعترضوا على كلامه . فقال : « وهل تريدون مني ان احدثكم عن نظرية ، « فلّت قمرنا يا حوت ؟ » .

* * *

كان عرس وقد جلس العروسان معاً ، فأتت عجوز قبيْحة المنظر فجلست بين العروسين ، فقبح الامر عند الحضور ، فارتجل الشيخ ابراهيم الحوراني :

تنبهوا ايهـــا الشادون وابتــدروا
إلى المعازف والنايــات والوتر
وخلصوا البدر من حوت الخسوف اما
رأيتم الارض بين الشمس والقمرِ

من ديوان الادب

الأميركيّون ينجّسون وجه القمر

في منتصف سنة ١٩٦٩ تقريباً هبط الاميركيون على سطح القمر ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي تطأ فيها أقدام الانسان على وجه القمر . فوجّه بديع العريضي ، بواسطة جريدة النهار بتاريخ ٦٩/٧/٢٤ السؤال التالي : « هل يجوز بعد الان توسل القمر لمعرفة أوقات الصيام ، بعدما وضع الانسان قدمه عليه فنجّسه ؟ »

فأجاب على سؤال العريضي أحد كبار العلماء ، بالآية الكريمة : « ان السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » . واستنتج من ذلك ان الارض والقمر هما من كتلة واحدة ، وفي حال وجود انسان على القمر ، تكون الارض قمره ؛ فهو يصلي ويصوم ويفطر على ضوء ما ترسله الشمس من أشعة على الارض .

اما مختار قرية صغبين ، خليل فاضل ، فقد بادر إلى

تقديم دعوى على الحكومة الاميركية ، لدى الحاكم المنفرد في البقاع الغربي ، الذي أحال الدعوى إلى القلم لابلاغها إلى السفارة الاميركية .

ومضمون الدعوى انه ربما حدث خلل في ضوء القمر ، او في مجرى الطبيعة ، بسبب المواد التي جلبها الاميركيون من القمر ، او المواد التي تركوها عليه ، ولذلك يطلب مختار قرية صغبين من الحاكم المنفرد في البقاع الغربي ، أن يحكم بتغريم المدعى عليهم ، بمبلغ مليار دولار ، تودع في البنك الاهلي على سبيل الاحتياط تحسباً لما يمكن ان ينتج من أضرار بسبب فعلتهم تلك .

لكن مجلس بلدية صغبين لم يلبث ان تبرأ من الدعوى القمرية وقدم اعتذاراً إلى السفير الاميركي في بيروت باعتبار الشكوى شخصية من المختار لا من بلدة صغبين .

أيها الجيلُ الملتوي إلى متى أحتملكم ؟

لنا صديق قديم يتجلى بنباهته منذ حداثته ويقرن شجاعته الادبية بحسن النية ، حتى انه أقدم في أيام شبابه على توجيه كتاب إلى قداسة الحبر الاعظم ، بابا رومية ، يقول له فيه ، ان جبلاً عاليا يمنع النسيم العليل عن قريته . ولذلك فهو يلتمس من قداسته ان يأمر بنقل الجبل إلى البحر فينتقل ، وذلك استناداً إلى قول السيد المسيح : « اذا كان لكم إيمان كحبة خردل ، فإنكم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل » .

وبعد عدة أسابيع أعيد الكتاب إلى صاحبه ، بعد ان وصل إلى حاضرة الفاتيكان ، وأحيل إلى أحد المراجع الدينية الذي أعاد الكتاب إلى صاحبه مع الاشارة إلى ان السيد المسيح ، عندما قال تلك الاية ، انما كان يوجه كلامه إلى أبناء ذلك الزمان قائلاً لهم : « أيها الجيل غير المؤمن والملتوي إلى متى احتملكم ؟ » .

قليلاً من الإيمان أيها الإخوان

على أثر ما أذيع عن ظهور السيدة العذراء ، مرات متعددة ، خلال شهر ايار سنة ١٩٦٨ ، فوق احدى كنائس القاهرة ، ذكرت جريدة الانوار بتاريخ ١٩٦٨/٥/١٢ ان الدكتور رؤوف عبيد ، استاذ القانون الجزائي بجامعة عين شمس أعلن ان تكرار ظهور السيدة العذراء يؤكد ان المعجزة ستستمر حتّى تعود القدس عربية وتتحرر من الارهاب الصهيوني .

كما ذكرت الجرائد المصرية ان اجتماعاً وطنياً حافلاً عقد في كنيسة المعلقة في مصر القديمة ، حضره البابا كيرلس السادس وعدد من الاكليروس ، بينهم نيافة الانبا صموئيل والانبا جريجوريوس ، كما حضره السيد عبد المجيد فريد ، الامين العام للاتحاد الاشتراكي العربي في محافظة القاهرة ، وذلك في نطاق بحث موضوع ظهور السيدة العذراء ، باعتباره « علامة من السماء على ان الله لا يرضى عما يحدث في القدس ، وان النصرة لنا باذن الله » .

وقد القى الانبا صموئيل ، كلمة في هذا الاجتماع ، ذكر فيها بالمناسبة ، ان جبل المقطم ، كان أيام الفاطميين ، في موضع غير موضعه الحالي ، لكن احد بطاركة الاقباط أزاحه من موضعه القديم إلى حيث هو الان .

قال الانبا صموئيل : « ان أحد الوزراء اليهود ، في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، أراد ان يدس على بطريرك الاقباط في ذلك الزمان ، لدى الخليفة المذكور ، واقترح عليه أن يأمر البطريرك بنقل جبل المقطم الذي كان يجثم على صدر القاهرة في ذلك الوقت ، إلى مكان آخر ، وذلك عملا بالآية القائلة : « اذا كان لديك ايمان كحبة خردل تقول للجبل انتقل فينتقل » .

فاستدعى الخليفة بطريرك الاقباط ، وطلب منه أن ينقل جبل المقطم إلى خارج المدينة ، استناداً إلى الآية المذكورة .

فعكف البطريرك على الصلاة ، مع جموع من شعبه حتى حصلت معجزة نقل الجبل التي دونتها كتب التاريخ ، وتحول الشر الذي أراده الوزير اليهودي إلى خير .

وقد علق الدكتور صادق العظم ، في مجلة « دراسات عربية » عدد تموز سنة ١٩٦٨ على آية نقل الجبل ، وبمناسبة الاجتماع المذكور آنفاً ، فاقترح على رجال الدين الموجودين أن ينقلوا جبل المقطم مجدداً ، ويلقوه فوق غرفة العمليات الحربية الاسرائيلية اثناء انعقاد هيئة أركان الحرب العدوة .

الملائكة لا يتناكحون

معروف ان المرسلين الاميركيين كانوا قد عهدوا إلى المعلم بطرس البستاني ، في منتصف القرن الماضي ، بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، كما عهدوا كذلك إلى الشيخين يوسف الاسير وناصيف اليازجي بمراجعة الترجمة ، توخياً لسلامة اللغة وسلاسة الاسلوب ، وذلك بإشراف العلامة الدكتور كورنيليوس فان ديك .

ومن مرويات المعلم نسيم الحلو ، نقلا عن الشيخ ابراهيم الحوراني ان اللجنة التي كانت تشرف على ترجمة ونشر الكتاب المقدس تعرضت لمشكلة لغوية كادت تتطور إلى مشكلة طائفية .

تقول الرواية ان الآية الموجودة في الانجيل وهي : « لانهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله » ، كان الشيخ يوسف الاسير قد اقترح ان

تستعمل فيها كلمة « يتناكحون » عوضاً عن «يزوجون ويتزوجون» الا ان الشيخ اليازجي اصر على عدم استعمال هذه الكلمة في الانجيل ، ولا سيما في معرض الكلام عن الملائكة . فغضب الشيخ الاسير ، لان الكلمة وردت في القرآن الكريم ، ولا شائبة عليها من حيث اللغة والمضمون . لكن يبدو ان وجهة نظر اليازجي انتصرت أخيراً ، لان هذه الكلمة لم ترد مطلقاً في الكتاب المقدس .

* * *

الدين يفرّق الشرقيين والخرافات تجمعهم

يتحدث الكاتب الأنكليزي « ادورد لين » عن الأقليات الدينية في الشرق الاوسط ، فيقول ان كل طائفة تكره حتى الموت المعتقدات الدينية عند سائر الطوائف . لكن الجميع يشتركون في الايمان بخرافات بعضهم البعض .

الفنار والقعقور

كان فارس بك الخوري يتولى عرض مطلب سوريا أمام مجلس الامن ، سنة ١٩٤٥ ، بوجوب جلاء الجيوش الفرنسية والانكليزية عن الاراضي السورية .

في ذلك الوقت كان الفرنسيون يرفضون الجلاء ، إلاّ اذا جلا الانكليز قبلهم ، لئلا يحل هؤلاء محلهم . بينما ادعى الانكليز انهم تعهدوا بضمان استقلال سوريا ولبنان ، لذلك فهم يرفضون الجلاء عنهما ، الاّ بعد جلاء آخر جندي فرنسي .

فوقف فارس الخوري ، في مجلس الامن وقال : « عاش عندنا في دمشق مجنون شهير ، تسلل في احدى الليالي الى أحد منعطفات المدينة ، حيث جمع بعض الحجارة ، فبناها بشكل (قعقور) ، ووضع فوقه فناراً مضاءً . فتجمع الناس حوله وسألوه عن سبب وضع الفنار المضاء في ذلك المكان . أجاب : « لئلا يعثّر المارة بهذا القعقور » . قالوا : « ولماذا بنيت هذا القعقور هنا ؟ » قال : « لكي أضع الفنار فوقه » .

وأضاف فارس الخوري قائلا : « ونحن الان نطلب من جانب مجلس الامن ان يأمر بإزالة القعقور والفنار معاً » .

القسم الخامس

من حواضر البيت

خمس لماذات ؟؟؟؟؟

يقال ان الرئيس فؤاد شهاب كانت عنده خمسة اسئلة بقيت بدون اجوبة :

١ – لماذا يكون اللبناني مستخدماً صالحاً في مؤسسة خاصة ، فإذا صار موظفاً في الدولة فسد ؟

٢ – لماذا يعتبر اللبناني مخالفة القانون انتصاراً ، والتقيد بالنظام مذلة ؟

٣ – لماذا يتفوق الفرد في لبنان وتتخلف الجماعة ؟

٤ – لماذا لا يميز اللبنانيون بين « الحربقة » والسياسة ؟

٥ – لماذا ترك اللبنانيون الدين واعتنقوا الطائفية ؟

«حَيْثُ تَزْدَهِرُ تِجارةُ الخشبِ وَتفتَقِرُ حِرْفةُ الأدَب»

قيل ان فرح انطون هو جان جاك روسو العرب ، ولكن العرب ليسوا فرنسا ليعرفوا قدر كبار مفكريهم . لذلك عاش فرح انطون فقيراً ومات منسحق القلب . فكتبت يومئذ – سنة ۱۹۲۲ – احدى المجلات المصرية تحت عنوان : « حيثُ تزدهر تجارة الخشب وتفتقر حرفة الادب » مقالاً روت فيه قصة فرح انطون مع رفيقه أسعد باسيلي اللذين هاجرا من طرابلس الشام سنة ١٨٩٥ إلى مصر ، لتعاطي الأعمال الصحفية. وكان والد فرح وهو تاجر خشب في طرابلس ، يقول كلما تحدث عن تجارته : « الخشب ، أوّلو حطب وآخرو ذَهب » ، لذلك ، عندما ودع ابنه ورفيقه أوصاهما قائلا : « يا ولديَّ ، اذا ضاقت بكما سبل العيش ، فعليكما بتجارة الخشب ، لان الخشب أوّلو حطب وآخرو ذهب » .

وهكذا انصرف فرح وأسعد إلى العمل الصحفي في

مصر ، مدة من الزمن ، دون ان يصيبا نجاحاً مادياً ، ففطن اسعد إلى نصيحة أبي انطون وانصرف دون رفيقه ، إلى تجارة الخشب ، وقد عرف في ما بعد ، باسم اسعد باسيلي باشا ، صاحب أكبر مؤسسة لتجارة الاخشاب في مصر .

انشأ فرح انطون سنة ١٨٩٧ مجلة « الجامعة » في الاسكندرية فكانت اجرأ المجلات العربية ، في ذلك الزمان ، وهو أول من دعا إلى فصل الدين عن الدولة ، وتجرأ على مهاجمة آراء السيد جمال الدين الافغاني ، وعلى مناظرة الشيخ محمد عبده ، وعلى التصدي للشيخ محمد رشيد رضا ، صاحب مجلة المنار. وهؤلاء الثلاثة كانوا جبابرة الفكر في ذلك الزمان — وتعتبر الردود المتبادلة بين فرح انطون والشيخ محمد عبده من أجرأ ما كتب في موضوع الدين والتعصب .

وفي أواخر القرن الماضي ، نشر الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان ، كتابا عن حياة المسيح ، بدون عجائب ، وذلك باعتباره انسانا فحسب ، لا يمتاز عن سائر الناس الا بتعاليمه السامية ، فأقدم فرح على نقل الكتاب إلى اللغة العربية ، فقوبل عمله بحملة قوية عليه من قبل رجال الدين المسيحي .

وبعدما ألف وترجم عدة كتب في الفلسفة والعلم والاشتراكية ، تنبه إلى أهمية التمثيل الغنائي ، وانصرف إلى التأليف المسرحي . وأهم ما يلفت الاهتمام انه أقدم على تعريب رواية « تاييس » عن الفرنسية ، وجعلها تمثيلية غنائية

قامت بدور البطولة فيها منيره المهدية ، وقد حسب رجال الفكر ، جنوح فرح انطون إلى مثل هذا العمل من الامور المنكرة .

ورواية تاييس هذه ، رائعة الكاتب العظيم اناتول فرانس ، هي قصة صراع مرير بين الحب والايمان : الناسك البار « بافنوس » يريد ان يهدي « تاييس » ، وهي راقصة بارعة الجمال ، إلى حظيرة الايمان ، لتحيا مجيدة بحب يسوع المسيح . بينما تحاول تاييس ، بدورها ان توقع الناسك في حبائل غوايتها ، وتدعوه إلى التمتع بالحب الجسدي الذي لا يوجد حب آخر سواه . وفي النهاية تستحوذ عبارات بافنوس الحارة على مشاعر تاييس فتهتدي وتصير راهبة بالغة القداسة ، في حين يتضعضع ايمان بافنوس أمام مفاتن تاييس ، ويكتشف ، بعد فوات الاوان ، انه كان « لشدة حماقته ، يفكر في الله ، وفي الحياة الابدية ، وفي خلاص نفسه ، كأن هذه الأشياء تساوي لحظة حب مع تاييس ، فقد كان بامكانه أن يشتري بثمن قصاص جهنم قبلة من فم تاييس فلم يفعل » .

المُداعَباتُ البَريئَةُ بالكَلِماتِ البَذيئَة

يحكى ان شابا طلب من الشيخ ابراهيم الحوراني — احد كبار شعراء القرن الماضي — ان ينظم له بيتاً من الشعر ، يرفقه بخاتم مرصع بالماس يريد ان يقدمه إلى خطيبته ، فتناول الحوراني ورقة وكتب عليها بخط جميل البيت التالي :

وخاتمٍ حصحصتُهُ بالحصوص
إلى التي تُهدى اليها الفصوصْ

وما كادت الفتاة تقرأ البيت المذكور حتى ألقت الخاتم من يدها ومزقت الورقة وانهالت على خطيبها باللوم والتثريب ، بسبب ما سمته قلة التهذيب . ولكن بعد مراجعة القاموس ، هدأت النفوس ، اذ تبين ان كلمة « فَص » معناها كل حجر كريم يوضع في الخاتم، وليس لها في لغتنا العربية اي معنى آخر.

فراق عندئذٍ خاطر الصبية ، واقتبلت الهدية — بعد ثبوت

حسن النية – ورجع الشاب إلى الشيخ الحوراني يطلب منه ان يكتب له بيت الشعر مجدداً بخطه الجميل ، فكتبه له ، إلا انه وضع هذه المرة اقواساً حول كلمة « فصوص » ، وعندما سأله الشاب عن الغاية من وضع هذه الأقواس حول الكلمة قال : « اول « فصوص » كان معناها حسب القاموس ، وثاني « فصوص » حسبما فهمته العروس .

الحُذفور الصّغير

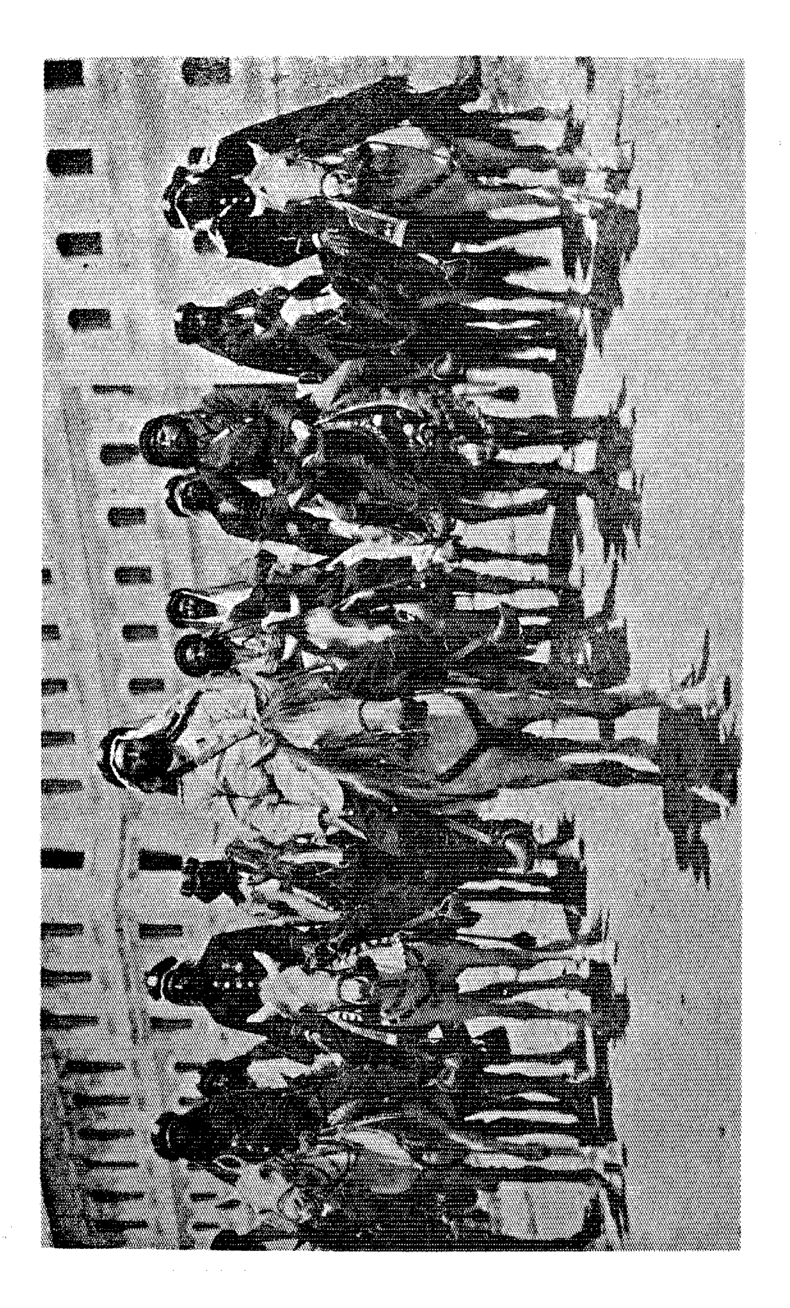
لمع اسم نجيب خلف كمحامٍ ناجح بين سنة ١٩٣٠ و١٩٤٠ ، والمعروف انه كان قبل ذلك قساً بروتستنتياً اصاب نجاحاً في حقل المحاماة فتفرغ لها في سنواته الأخيرة .

ومما يذكر انه اضطلع بدعوى حقوقية ضد احد محامي الدولة في ذلك الزمان ، الذي اخذ يترافع في المحكمة باللغة الفرنسية ، وكان الاستاذ خلف غير ملم بها ، فاعترض للمحكمة وطلب ان يتكلم زميله بالعربية فأبى ، كما اقرّت المحكمة حق المرافعة بالفرنسية ، باعتبارها لغة رسمية بموجب قوانين الانتداب ، واعترفت كذلك بحق المرافعة باللغة العربية ، فأتيح بذلك لمحامي الدولة ان يفهم مضمون كلام الاستاذ خلف ، في حين لم يكن بامكان الاستاذ خلف ان يفهم شيئاً من مضمون كلام زميله .

ولم يكن الاستاذ خلف ممن تلين قناتهم بسهولة ، فقرر ان يجعل مرافعته في الجلسة التالية بلغة عربية غير مفهومة حتى من القضاة الذين اظهروا تحيزاً للغة الفرنسية ، فحشر في دفاعه عدداً كبيراً من الافعال والاسماء العويصة ، والتي لا بد ان يكون قد استعان على جمعها بأحد قواميس اللغة العربية .

وما ان بدأ الاستاذ خلف مرافعته ، واخذت تلك الكلمات تتوارد وتتزاحم حتى ضاع زميله ، كما ضاعت المحكمة ايضا وطلبت منه ان يتكلم بلغة مفهومة ، فقال : « هذه لغة بلادي ولا احد يستطيع ان يمنعني من التكلم بها » .

على ان اطرف ما حدث عندئذٍ ، هو ان المحامي المذكور ثار وهجم على الاستاذ خلف ، عندما سمعه يقول : « هذا الحذفور الصغير » ، ظناً منه ان كلمة « حذفور » هي كلمة مشينة موجهة اليه ، وقد تبين انها لم تكن سوى مفرد كلمة « حذافير » المعروفة والتي يستعملها المحامون كثيراً في كلامهم ، ولعل الاستاذ خلف كان يتكلم عن احد مضامين الدعوى او بيّناتها فنعته بالحذفور الصغير .



« باريز تلزم حدّها »

في اول ايلول سنة ١٩٢٠ اعلن المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو ، انشاء دولة لبنان الكبير ، بخطاب تاريخي هام ، وامام لفيف من الرؤساء الروحيين والزعماء والقادة العسكريين جاء فيه :

– « في سفح هــذه الجبال الشامخــة التي كانت سور ايمانكم ، وعلى شاطىء هذا البحر الذي يحمل اليكم اليوم ، بعد رجوع الحظ ، نعمة السلم الفرنسي انادي بدولة لبنان الكبير ، فلا تنسوا ان دم فرنسا الكريم اهرق من اجلكم ، كما سفك لاجل كثيرين غيركم » .

كان هذا بعد معركة ميسلون التي اهرقت فيها دماء يوسف العظمة ورفاقه ، وبعد هيمنة الفرنسيين على سوريا ولبنان ، وانحسار حكم الملك فيصل الهاشمي عن سوريا وعن الاقضية الاربعة كما هو معروف .

ومما يروى ان الامير فيصلاً ، قبل اعلانه ملكاً على عرش سوريا قدم لزيارة منطقة البقاع ، التي كانت جزءاً من ولاية دمشق – متحدياً بذلك سلطة الفرنسيين الذين اعتبروا منطقة البقاع احدى مناطق انتدابهم – فأقيمت له احتفالات حماسية على طول الطريق من دمشق حتى معلقة زحله ، وكانت بعض الوفود تحدي بدافع التحدي :

« جيوش العدا منصدّها   وبرصاصنا منردّها
فيصل امير بلادنا   وباريز تلزم حدّها »

لكن باريز لم تلزم حدها وكان ما كان ، وزحف الجنرال غورو بعسكر فرنسا – الذين سماهم في خطابه المذكور « عرّابي استقلال لبنان » – باتجاه دمشق فأذلها ، ووقف مزهواً على قبر صلاح الدين الايوبي وقال : « ها نحن قد رجعنا من جديد يا صلاح الدين » !

في ذلك الوقت راجت حدوة اخرى مشهورة ، ربما قيلت بعد انهزام الأمير فيصل او في اثناء زحف الجنرال غورو لمحاربته وهي :

« يا مير وش لك بالحروب   وفرنسا مانك قدّها
هذي دول بدها دول   راعي الغنم ما يردّها »

وهكذا على نفس الوزن والقافية ، استقبلنا الامير فيصلاً منتصراً وشيعناه منهزماً .

كلمات في محلها

سنة ١٩٥٣ زادت نسبة الراسبين في الامتحانات المدرسية الرسمية ، فقامت ضجة بين الأهالي ، واهتم الرأي العام بالموضوع اهتماماً حدا بوزير التربية يومئذٍ ، إلى عقد مؤتمر صحفي لتبرير ما حدث ، فقال ان التلامذة انصرفوا إلى الاضرابات والمظاهرات ، فشغلتهم السياسة عن دروسهم . لذلك زادت نسبة الراسبين بينهم ، هذه السنة ، عما كانت عليه في السنوات السابقة .

فوقف طالب كان موجوداً آنئذٍ وقال : « اسمحوا لي يا معالي الوزير ان اذكر بانكم قد غلطتّم اكثر من عشر غلطات بالصرف والنحو ، في كلمتكم التي تلوتموها الان ، فكيف يجوز ان يرتكب وزير التربية مثل هذا العدد من الاخطاء في كلمة مكتوبة يلقيها في مؤتمر صحفي ، وان يمنع الشهادة عن ولد يرتكب اقل من هذه الاخطاء في امتحان الاملاء العربي » .

فسأل الصحفيون عمن يكون هذا الطالب ، وعندما علموا انه ملحم كرم ، ابن كرم ملحم كرم قالوا : « ان هذا الشبل من ذاك الاسد » .

اما ذاك الاسد كرم ملحم كرم ، فقد اتيح لي يوماً ان احضر محاكمته ، عندما كان يصدر مجلة العاصفة ، بتهمة اهانة الحكومة في مقال كتبه في مجلته تلك ، وقد استهل دفاعه قائلا :

— « عندما نصّب معاوية ابنه يزيد ولياً للعهد شعر الناس بالخيبة ، لان يزيد لم يكن في مستوى ولاية عهد معاوية ، الا انهم اخذوا يتوافدون مهنئين وهم يثنون على جدارة يزيد . وكان الاحنف بن قيس جالساً ، فقال له معاوية : « ما بالك يا ابا بحر لا تقول شيئاً ؟ » .

قال : « اخاف الله ان كذبت واخافكم ان صدقت » .

واردف كرم قائلاً : « وبما ان مهنتي هي الكتابة ولا يسعني ان افعل كما فعل الاحنف ، وحيث اني رجل اخاف الله، لذلك كتبت ما يرضي الله ولو غضب معاوية » .

وتحضرني في هذه المناسبة قصة اخرى « لكرم » آخر ، ففي مطلع عهد الاستقلال كتب الصحافي غندور كرم عن وجود تلاعب في الضرائب مقداره ملايين من الليرات ، ونسب المعلومات التي اوردها إلى احد الوزراء ، وهي تتناول وزارة المالية في ذلك العهد والدولة اجمالا .

وسيق غندور إلى المحكمة ، بعد ان نفى الوزير المنوه

عنه ان يكون قد افضى اليه بتلك المعلومات ، فوقف غندور وقال : « رأت احدى النساء جمهوراً كبيراً من الناس في احد شوارع بغداد فسألت شابا عن سبب هذا التجمع ، قال : « سيصل الآن جار الله الزمخشري ، وقد جئنا لاستقباله » .

فقالت : « وما شأن هذا الرجل حتّى استحق هـــذا الاكرام » ؟

قال الشاب : « ويحك ألم تسمعي بالزمخشري الذي أوجد ألف دليل على صحة وجود الله » .

فقالت : « لو عقلتم لقتلتموه ، فلو لم يقم في ضميره الف شك بوجود الله ، لما اجتهد في تقديم الف دليل على صحة وجوده » .

وزاد غندور قائلا : « وانتم يا حضرات القضاة ، لو لم يقم في ضميركم شك بأن ما كتبته كان صحيحا لما اجتهدتم في اثبات عدم صحته » .

واصدرت المحكمة حكمها يومئذٍ بحبس غندور كرم تسعة اشهر . وبعد خروجه من السجن التقيت به صدفة فذكّرته ببيتين من الشعر لعباس محمود العقاد ، قالهما عند خروجه من السجن بتهمة ذم الملك قال :

وكنتُ جنين السجن تسعة اشهرٍ
وها اناذا في ساحة الحق أولدُ
وفي كل يوم يولد المرءُ ذوالحجى
وفي كل يومٍ ذو الجهالة يلحدُ

شوبقي للمشايخ

قصة طانيوس شاهين ، مؤسس أول جمهورية في لبنان ، صارت معروفة ، تماماً مثل قصص المير بشير وفخر الدين وشهداء السادس من أيار وأبطال الاستقلال وسواهم ممن حامت حولهم كثيراً أنظار الكتاب وتخيلات رواد القصص التاريخية .

الا اني سمعت مؤخراً من العلامة عارف بك النكدي قصة تاريخية جميلة يرويها عن لسان المرحوم جريس بك صفا ، وهي تلقي بصيصاً من نور على بعض الاحداث التي رافقت حركة طانيوس شاهين في كسروان ، وكلا الرجلين : النكدي حفظه الله والمرحوم جريس صفا ، من أعلام الفضل والمعرفة ، لذلك آليت على نفسي أن أنقل القصة هنا ، وحسبي ان لا تضيع .

كان ذلك في عصر الاقطاع ، وكان المشايخ آل الخازن

من أسياد منطقة كسروان ، وكانت قوانين الاقطاع تبيح لهم أن يتصرفوا بمقدرات الناس . وساعدت ظروف السلطنة العثمانية ، وتدخل قناصل الدول الاجنبية ، واختلاف الحكام من آل أبي اللمع ، على استشراء الفوضى في المنطقة .

في هذا الجو ثار فلاّحو كسروان على أسيادهم الخازنيين بزعامة شيخ شباب قرية ريفون ، طانيوس شاهين ، وطردوا الخازنيين من كسروان وانشأوا أول جمهورية في لبنان — هكذا تقول كتب التاريخ — ويضيف بعض المؤرخين ان البطريرك الماروني بولس مسعد وأساقفته كانوا يؤيدون قضية الفلاحين . وكان ذلك سنة ١٨٥٩ .

ولكن لنرجع خمسين سنة إلى الوراء ، عندما كان البطريرك بولس مسعد لم تلده امه بعد . اذ حدث ان احدى الفتيات من طبقة الفلاحين ، في احدى كنائس كسروان ، تجرأت ولبست طنطوراً على رأسها ، يوم عرسها . كان الطنطور في ذلك الزمان ملبوس نساء أكابر اللبنانيين وسراتهم ، فتقدمت احدى السيدات وخلعت حذاءها وضربت به طنطور العروس فدحرجته عن رأسها وصاحت بها : « وماذا أبقيت لنا يا قليلة الحياء ؟ » .

ووجدت العروس نعمة عند الله ، وكانت مباركة في النساء ، فحبلت وولدت عظيماً في لبنان ، ذلك هو البطريرك بولس مسعد ، الذي تروي كتب التاريخ أنه آزر حركة

الفلاحين ضد الخازنيين .

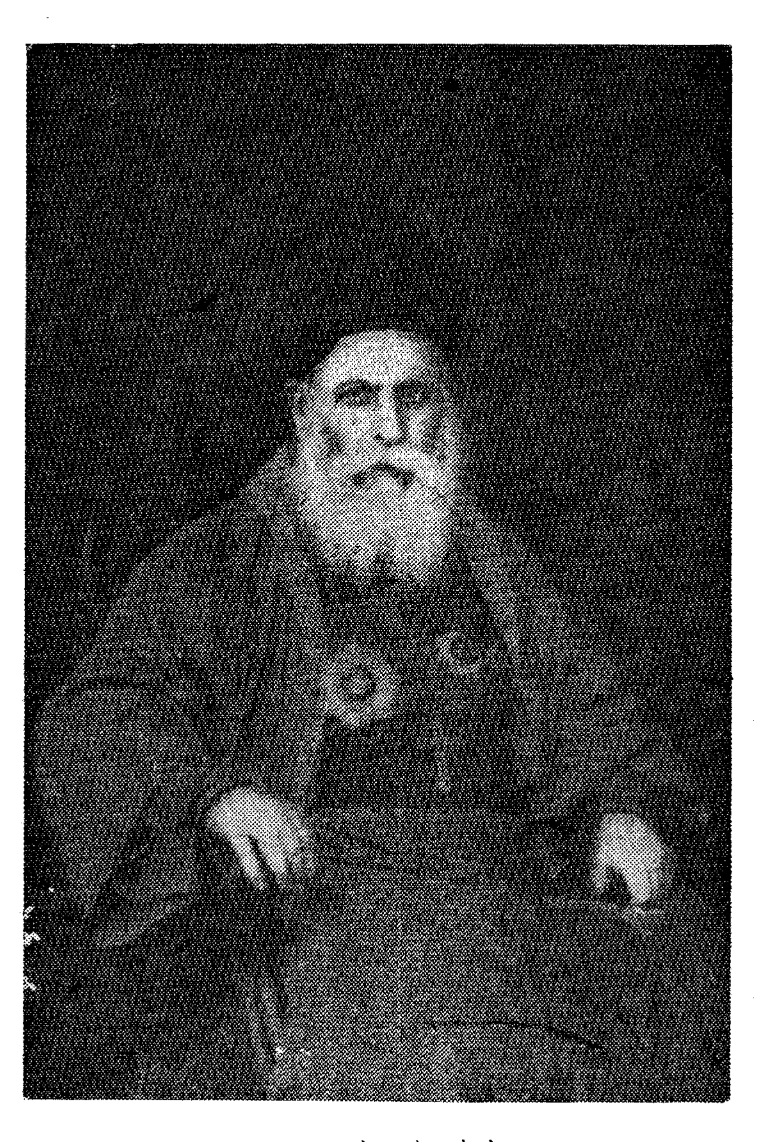
وتشاء الصدف كذلك — لكي لا يصح الا الصحيح ، كما يقول بعض اللبنانيين — أن يلجأ أحد الزعماء الخازنيين إلى السدّة البطريركية هارباً من غضب الفلاحين ، في ابان ثورتهم ، فيقول له البطريرك : « منذ نصف قرن ، استكثرت امك الطنطور على راس امي ، لكن الله عز وجل عوّض عليها بهذا التاج على راسي »[1] .

---

(١) ان هذه العبارة الاخيرة هي من مرويات احد الرواة ، اما الاستاذ النكدي فيقول ، ان كبير المشايخ الخازنيين، بحسب تقاليد ذلك الزمان ، كان عليه ان يقدم الى البطريرك الماروني ،عندما يتم انتخابه ، جبة بطريركية ترمز الى موافقة السلطة المدنية الممثلة بآل الخازن ، على عملية الانتخاب .

لكن البطريرك بولس مسعد، عندما قدم اليه كبير المشايخ الخازنيين الجبة المذكورة ، رفض ان يرتديها وعلقها في مكان ما ، حتى جاء الشيخ نفسه لاجئاً الى الصرح البطريركي ، فأخذ البطريرك الجبة ووضعها على كتفي الشيخ .

والى هنا تنتهي الرواية ، وكل ما يقال عما دار من احاديث بين البطريرك والشيخ فهو من قبيل الافتراض والتكهن .



البطريرك بولس مسعد

حضرة البطريرك أفندي

يحكى ان داود باشا ، أول متصرف على جبل لبنان ، لاحظ شغف اللبنانيين بالألقاب ، فأخذ يغدقها عليهم بـــلا حساب ، وكل من لم يكن أميرا او شيخاً فهو « افندي » حتى راج هذا اللقب ، منذ ذلك الزمان إلى الان وصار من الالقاب المبتذلة .

والمعروف في كتب التاريخ ان خلافاً كبيراً وقع بين داود باشا وبين غبطة البطريرك الماروني بولس مسعد، وتبين أن سبب الخلاف يعود إلى أن داود باشا كان يعنون رسائله إلى البطريرك بِ « حضرة البطريرك افندي ، او حضرة بولس افندي » . فاعتبر البطريرك ذلك تحقيراً لمقامه وللطائفة التي يمثلها ، ولا سيما عندما اشيع ان كاتب تلك الرسائل كان من طائفة الروم الارثوذكس ، وانه كان يتعمد الاساءة إلى غبطة بطريرك الموارنة .

ومما يروى ان سليم بك عمون ، الذي تولى قائمقامية جزين في أواخر القرن الماضي ، لاحظ شغف أبناء جزين بالالقاب وتمسكهم بأسباب الوجاهة . حتى ذلك الوقت كان وصول العربات إلى البلدة متعذراً لان مدخل جزين من الجهة المسماة « المعبور » كان ضيقاً جداً وتحف به صخور شاهقة .

يقال ان سليم بك عمون، بعدما عجز عن استنهاض همم أبناء جزين للتعاون على شق مدخل بلدتهم عمد إلى مداهنتهم بواسطة رئاسة قلم متصرفية جبل لبنان التي أرسلت إلى عدد من وجهاء البلدة رسائل شخصية معنونة بـ : « حضرة فلان بك » تدعوهم فيها الى مؤازرة القائمقام في شق طريق المعبور .

ودبت النخوة في صدر البكوات الجدد ، وبهذه الطريقة تم شق مدخل جزين ، ويقول الشيخ بشاره الخوري في مذكراته ان الناس أطلقوا عليهم في ذلك الوقت اسم « بكوات المعبور » .

* * *

حبر على ورق

قال جمال الدين الافغاني ، منذ مئة سنة تقريباً : « لا يصلح الشرق الا حاكم مستبد عادل » . فشغلت عبارة فيلسوف الشرق ، هذه ، أدمغة المفكرين منذ عشرات السنين ، ولم يجرؤ واحد منهم ان يحلم باصلاح الشرق بواسطة حاكم عادل فقط غير مستبد .

وكانت من شيم سلاطين بني عثمان ، في ذلك الزمان ، ان يقتل السلطان اخوته ، وأحيانا ، أبناءه ليأمن شر مؤامراتهم ، حتى ان مراد الثالث قتل اخوته الخمسة ، ومحمد الثالث قتل تسعة عشر اخاً من اخوته وسليمان القانوني قتل ولدين من أولاده عدا من قتلهم من اخوته .

وعندما قُتل السلطان عبد المجيد وجيء بأخيه عبد العزيز من السجن لاجلاسه على عرش الاستانة أميراً للمؤمنين ، قال له شيخ الاسلام بعد ان أراه جثة أخيه : « لا تكن متكبراً

أيها الملك ، ان الله لا يزال أكبر منك » . فألقى السلطان الجديد نظرات طويلة إلى البساط الذي كانت جثة أخيه مطروحة عليه ، وقال بصوت متلجلج سمعه الحاضرون : « ان الكبرياء لا تليق الا بالخالق ، أما المخلوق فليس الا قبضة تراب . أيها الامام اني سأسير حسب نصيحتك » .

لكن لم يطل الوقت كثيرا حتى قال عبد العزيز لشيخ الاسلام : « انا أمير المؤمنين واحكم بمشيئة الله لا بمشيئة المسلمين » . فطغى وبغى أكثر من أسلافه أجمعين . حتى جاء بعده عبد الحميد فكان سيد الطغاة والمستبدين .

لذلك ، عندما هيمنت جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد السلطة وأعلنت الحكم الدستوري ، جعلت شعار العهد الجديد : حرية ، عدالة ، مساواة . وأنشأت برلمانا سمي مجلس « المبعوثان » ، كانت حصة ولاية بيروت فيه نائبين .

في ذلك الوقت كان العلاّمة سليمان البستاني أحد عباقرة زمانه ، فبادر أبناء الولاية إلى ترشيحه للنيابة عنهم بحماسة وتفاؤل ، ولذلك قال فيه امين تقي الدين يومئذٍ : « لو عاش البستاني في جاهلية اليونان لما حمل ديوجينوس مصباحه في النهار وطاف يفتش عن الرجل المنشود » .

وعندما فاز سليمان البستاني بعضوية مجلس المبعوثان ، قدم اليه وفد من مسيحيي الولاية ، وطلبوا منه أن يعمل ما

بوسعه ، في ضوء مبادىء الدستور على تحسين أوضاعهم . فوعدهم خيراً . الا ان البستاني لم يلبث ان كتب ، بعد أسابيع قليلة ، من الاستانة إلى أحد انسبائه يقول : « ان الدساتير والشرائع والشعارات والخطب والاقوال تبقى في بلادنا حبراً على ورق ، فلا تتأملوا خيراً » .

* * *

حيث لا توجد رابطة بين الانسان وبين عصره

قال «لامرتين» في خطبة له على منبر مجلس النواب الفرنسي ، في القرن الماضي ، ان المقارنة بين الغرب والشرق غير ممكنة . فالرجل العظيم في الغرب هو عنوان امته ، حيث توجد رابطة بين الانسان وبين عصره . اما في الشرق ، حيث لا انظمة سياسية ، بل هنالك اسياد وعبيد ، فالرجل العظيم ليس الا كائناً عظيماً ، يأتي اعمالا عظيمة ، لكنه لا يرفع امته ابداً الى مستواه ، لذلك عندما يموت تُطوى عظمته بعده كما تُطوى خيمته . وهذا ما يفسر كون الاساليب العربية في الحياة هي خرافات لا تخدع سوى المؤمنين بها .

الدّستور يُؤخذ ولا يُعْطَى

في شهر تموز ١٩٠٨ تم اعلان الدستور العثماني . وكانت الاصول المرعية تقضي بأن تعلن وثيقة الدستور وتتلى بعض بنوده في احتفالات رسمية في جميع المراكز الحكومية ، اشعاراً ببزوغ فجر جديد على شعوب السلطنة العثمانية .

كان ذلك في عهد متصرفية يوسف فرنكو باشا الذي كان من أنصار العهد القديم ومن مناهضي المبادىء الدستورية ، فتجاهل الامر وكأن شيئاً لم يكن . لذلك قلقت أفكار أبناء جبل لبنان الذين هزتهم انتفاضة أحرار السلطنة وتوسموا عهداً سعيداً .

وحدثت بعد ذلك بوقت قريب مناسبة عيد الجلوس . اي عيد ارتقاء عبد الحميد إلى عرش الاستانة — وكان ذلك طبعاً قبل اقصائه عن العرش — وكانت التقاليد توجب ان يقام يومئذٍ احتفال شعبي تقدم فيه التهاني إلى ممثلي الباب العالي

ومنهم متصرف جبل لبنان . فتنادى زعماء الجبل إلى اجتماع قرروا فيه مطالبة المتصرف باعلان وثيقة الدستور ، يوم الاحتفال بعيد الجلوس .

وفي الموعد المحدد زحفت جموع اللبنانيين إلى بيت الدين ، يتقدمهم حبيب باشا السعد والأمير شكيب ارسلان والشيخ كنعان الضاهر . فوقف المتصرف في باب ديوانه يتقبل التهاني . وكان أول المتكلمين حبيب باشا فقال : « جئنا الان مهنئين ، ولكن لنا مطالب ... » .

فقاطعه فرنكو باشا بحدة وقال : « اذا كنتم مهنئين فأهلا وسهلاً ، اما اذا كانت لكم مطالب فبإمكانكم أن تقدموها خطياً » . وقفل داخلا إلى ديوانه .

عندئذ أراد زعماء الوفد ان يدخلوا وراءه . فوقف بكباشي الدّرك في الباب ليمنعهم من الدخول ، فدفعه الشيخ كنعان جانباً وصاح به قائلا : « قل لسيدك أن يحضر حالا ويعلن وثيقة الدستور والا أعلناها نحن ! » ، وأخذت الجماهير تهتف ، « فليسقط أعداء الدستور » .

فخشي المتصرف مغبة الامر وعاد مرغماً وأعلن وثيقة الدستور . وتبين يومئذ ان فرنكو باشا كان قد كتب قبل ذلك بقليل إلى الصدارة العظمى في الاستانة ، يقول : « ان لبنان غير أهل للدستور ، لان أبناءه يحسبون الحرية انفلاتاً من قيود النظام » .

« كمال عين تكرم مرجعيون »

قبل نهاية القرن الماضي اشترى البارون روتشيلد اليهودي [1] قرية « المطلة » احدى قرى منطقة مرجعيون في ذلك الزمان ، من مالكها جبور بك رزق الله من صيدا ، وذلك في نطاق أحد المخططات الصهيونية ، لجعل قرية المطلة قرية يهودية ، و « مغط » حدود « أرض الميعاد » إلى ما وراءها .

وكان زعيم المطلة الشيخ علي الحجار من زعماء الدروز المعروفين ومن أصحاب المكانة عندهم ، اذ سبق له ان قاد احدى حركات العصيان المسلح ضد الدولة العثمانية وبطش باحدى حملاتها فقتل بعض أفرادها وشتت شمل من تبقى منها .

واضطرت الدولة يومئذ إلى توسيط الوجيه المرجعيوني ملحم راشد بينها وبين الحجار ، ولكن بدون جدوى ،

---

(١) نشرت في القلم الصريح بتاريخ ٧١/٥/٢٢

وعرف انه استسلم في ما بعد بواسطة نسيب باشا جنبلاط وعفي عنه .

وفي أحد الايام استدعاه القائمقام رفعت بابان بك إلى جديدة مرجعيون لغاية ما ، وعند المساء توجه عائدا إلى قريته ، الا ان فرسه وصلت صباح اليوم التالي إلى المطلة ، بدون فارسها ، فهب رجاله يبحثون عنه حتى عثروا عليه مقتولا ومطروحا قرب نبع الحمام في مرجعيون .

قيل ان قائمقام مرجعيون كان وراء مصرعه ، كما أشيع بان أحد زعماء المنطقة كان يترصد خطواته ، الا ان مقتل الحجار ما زال حتى الان سرا مغلقا لم يستطع أحد أن يكشف عن حقيقته ، وقد يجوز التكهن ، بالنسبة إلى تسلسل الاحداث ، بان ازالة « الحجار » من الطريق قد سهلت عملية اقتلاع الدروز من قرية المطلة وتسليمها إلى اليهود ، قبل نهاية القرن الماضي .

الذي يهمنا الان هو ان جماعة « الحجار » اتهموا أهالي جديدة مرجعيون بقتله ، فذبحوا عساف الصغير على الفور ، قرب جسر الخردلي ، وأخذوا يجيّشون للهجوم على الجديدة ، وبنو معروف ، كما هو معروف ، لا يبيتون على ثأر ولا ينامون على ضيم ، فكم بالحري اذا كان قتيلهم من عيار الشيخ علي الحجار .

هذا مع العلم ان الهجوم على جديدة مرجعيون مغرٍ وهين :

بيوتها عامرة وأهلها مسالمون ، يتنافسون على اقتناء النفائس ولكنهم لا يخبئون البنادق في مخادعهم .

لذلك لجأ أهالي الجديدة إلى المراجع المسؤولة ، وتوجه بعض وجهائهم إلى بيروت حيث قابلوا رضا بك الصلح وطلبوا مساعدته فأبى وقال لهم « اقلعوا شوككم بأيديكم » .

وذكّر رضا بك أهالي الجديدة بحادثة خان الزهارية عندما فك صاحب الخان حمارا لرجل من صيدا وربط مكانه فرسا لرجل من الجديدة ، فنشأ عن ذلك خلاف بين الرجلين ، وتألب الصيادنة على الجدادنة وأهانوهم ، فقدم هؤلاء شكاوى قاسية اللهجة إلى مقام والي بيروت .

كان رضا بك الصلح ، يومئذ يشغل وظيفة حساسة في مركز ولاية بيروت ، وأراد بحكم وظيفته ان يتوسط بين الصيادنة والجدادنة فرفض هؤلاء وساطته قائلين : « ابن صيدا ما بينعطى ريق حلو » .

وبلغت هذه العبارة مسامع رضا بك ، ولذلك رفض في ما بعد ان يتوسط لأهالي الجديدة في قضية مقتل الحجار .

في ذلك الوقت كانت عليا فرنسيس [1] قد شقت طريقها لتصبح من أسياد المواقف في المنطقة ، وشعرت بأن الجو قد

---

(١) توفيت سنة ١٩٢٣ . اشتهرت بالفروسية والذكاء والشجاعة .

اكفهر بسرعة ، وان ملابسات جريمة مقتل الحجار قد تتطور إلى فتنة طائفية فانتخبت وفـــدا من وجهاء المسيحيين في المنطقة وهبطت إلى بيروت وقصدت رضا بك الصلح بالذات .

فرحب رضا بك بعليا فرنسيس أجمل ترحيب ، وطيب خاطرها وخواطر صحبها وقال في معرض الكلام: « كرمال عين تكرم مرجعيون » (١)

وقد ذكر محمد جابر ال صفا في « تاريخ جبل عامل » ان رضا بك ذهب إلى مرجعيون وأشرف بنفسه على التحقيق في جريمة مقتل الحجار فكشف ملابساتها ورفع تقريرا يبرىء فيه ساحة المسيحيين ويلقي تبعة القتل على عاتق القائمقام المذكور ، لكن الاهواء السياسية ــ كما يقول ال صفا ــ طمست ذلك التقرير ، وطوت صحيفته وذهب دم الشيخ هدرا .

* * * * *

---

(١) قد يكون رضا بك الصلح هو ، فعلا ، صاحب هذا القول المأثور ، وذلك نقلا عن لسان الارشمندريت يوحنا حرفوش ، وقد يكون لهذا المثل تاريخ وقصة لم تصل اليهما تحرياتنا

مهابيج وفرسان للكرم والكرامة

كان الشيخ يوسف فرنسيس من أبطال الرجال في القرن الماضي ، ومن أشهر فرسان ذلك الزمان ، يدل على ذلك كتابه « سراج الليل في سروج الخيل » المطبوع سنة ١٨٨١ .

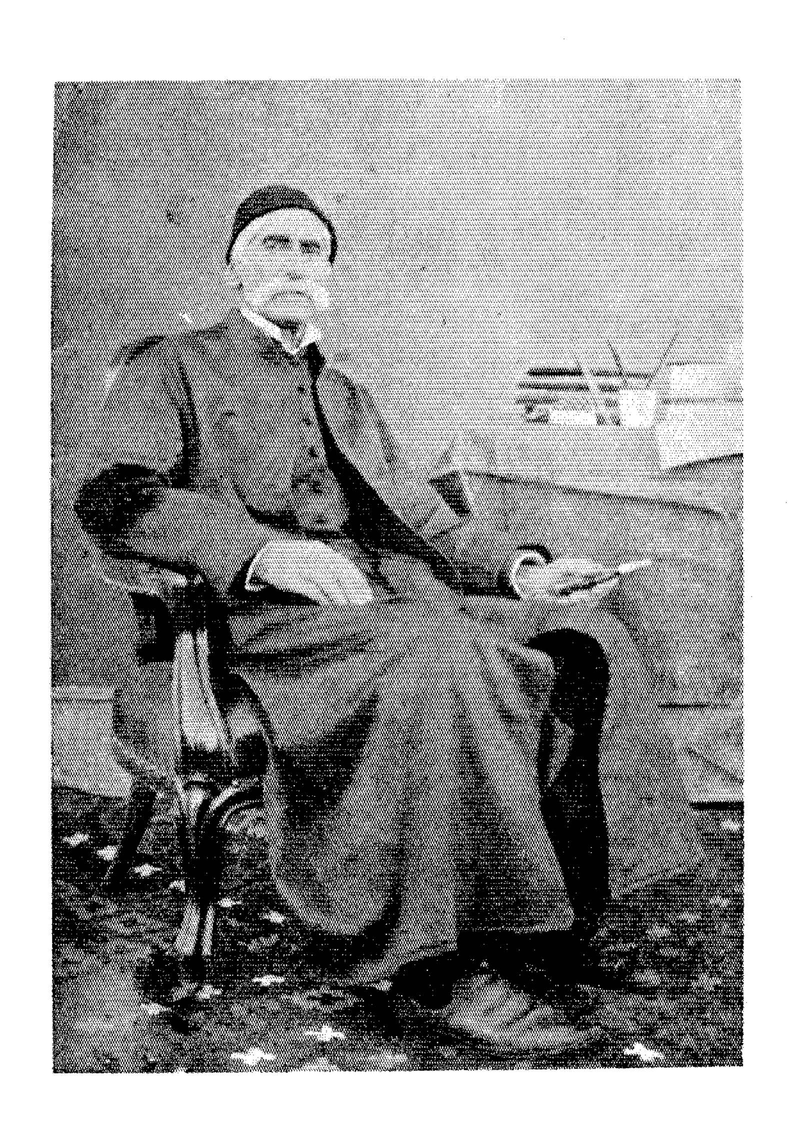
وحدث سنة ١٨٨٧ ان استدعاه رشيد بك اباظه ، قائمقام مرجعيون وأبلغه ان والي بيروت خليل باشا أمر باحضاره اليه وأوفد لهذه الغاية فرقة من عسكر الدراكون (١) لسوقه موقوفاً إلى بيروت .

فأذعن الشيخ يوسف للأمر ، وعندما هم بركوب حصانه لمرافقة عسكر الدراكون منعه قائد الفرقة من ذلك وقال انه بموجب الاوامر المعطاة اليه لا يسمح للشيخ يوسف الا بركوب كديشة (٢) . وقيل يومئذٍ ان الغاية كانت تحقير الشيخ يوسف ،

---

(١) عسكر الدراكون هم الدرك وكانوا يركبون على البغال .

(٢) الكديشة فرس غير اصيلة لا تصلح للركوب بل لنقل الاثقال وهي غير سريعة وتوضع على ظهرها برذعة بدلا من السرج الخاص بالخيول الاصيلة .



الشيخ يوسف فرنسيس

كما قيل ان قائد الفرقة كان يخشى صولة الشيخ يوسف اذا امتطى صهوة جواده وأخذته حمية الفرسان .

وكان اسعد بيوض ، وهو من وجهاء ذلك الزمان ، حاضراً فقال : « عندي كديشة تصلح لهذه الغاية أقدمها للشيخ يوسف » ، وأسرّ إلى أحد الرجال ان يضع « جِلالا » ، اي برذعة على ظهر فرسه التي كانت من أعرق خيول العرب ، وان يأتي بها حالاً .

وما ان جيء بالفرس وعلى ظهرها البرذعة ، حتى عرفها رشيد بك وقال : « هذه الفرس من أكرم أصائل الخيل فلا يجوز مطلقاً أن تمس كرامتها وان يوضع هذا الجلال على ظهرها ، وهذا ما يتنافى مع تقاليد العرب وأخلاق الفرسان » فقال أسعد بيوض : « وهل يجوز اذن ، يا سعادة القائمقام ان تمس كرامة هذا الشيخ الجليل ، فيطلب منه ان يركب على كديشة ، وهو من أنبل فرسان هذا الزمان » .

ويروى ان الشيخ يوسف فرنسيس كان قد نزح عن حاصبيا — مسقط رأسه — خلال حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤومة وأقسم ان لا يعود اليها أبداً ، وقدم إلى جديدة مرجعيون ونزل ضيفاً على آل بيوض ، فخف وجهاء الجديدة إلى الترحيب به ، وتمنوا عليه أن يقيم في بلدتهم على الرحب والسعة .

وفي صباح اليوم التالي جاؤوا يشربون قهوة الصباح معه وجلسوا يتحدثون فقال : « اني أسمع صوت مهباج من الجهة

الشرقية فمن هو صاحبه » ؟ ، قالوا : « انه فلان » .

ثم سألهم : « اني أسمع كذلك دقة مهباج من الجهة الشمالية أليس كذلك » ؟ قالوا : « بلى وهو مهباج بيت فلان » .

ثم قال : « ومن هو صاحب المهباج الذي بدأ يدق الان بالقرب منا » ؟ قالوا : « انه مهباج بيت الجيران » .

فقال : « حسنا » .

ثم أخذوا يلحون عليه ان يقرر الاقامة في ما بينهم فقال : « ما دام كل واحد منكم عنده مهباج ولا تجتمعون حول مهباج واحد فلن تجتمع كلمتكم ولا يقوم لكم رأي موحد » .

وودعهم ومضى إلى قرية « القليعة » حيث بنى داره المعروفة ووحد كلمة أهلها حوله كما هو معروف .

« الصاج والمهباج اول ما تقتني وآخر ما تبيع »

والمعروف محليا ان أكثر أهالي جديدة مرجعيون هم عرب اقحاح قدموا من حوران في القرن السابع عشر ، عندما تعرض المسيحيون في سوريا لموجة من الاضطهاد الديني نفروا خلالها إلى لبنان حيث وجدوا في كنف الامير فخر الدين المعني كل حماية واطمئنان ، كما تذكر بعض كتب التاريخ :

وكان من جملة النازحين ، من حوران ، عدد من العائلات

قدمت إلى جديدة مرجعيون واستوطنت فيها ، وقيل انها كانت على الغالب من النساء والأطفال ، بعد مقتل رجالها ، لذلك تكنّى الاولاد ، بداهة ، بأسماء امهاتهم . ومن هنا كون عدة عائلات مرجعيونية تتكنّى بأسماء مؤنثة . هذا مع القول بوجود عدة عائلات لبنانية مسيحية ، من أصل سوري، تتكنّى بأسماء مؤنثة لنفس السبب ، والله أعلم .

وكانت العائلات الحورانية القادمة إلى جديدة مرجعيون تحمل معها بعض المقتنيات مما خف حمله وغلا ثمنه ، وكان في عداد منقولات كل عائلة مهباج وبعض « الدلال » ، وهي الاباريق النحاسية المستعملة لطبخ القهوة . ويذكر ان بعض المتقدمين بالسن كانوا يقولون : « الصاج والمهباج أول ما تقتني وآخر ما تبيع » .

والمهباج هو دليل كرم ورمز كرامة عند العرب ، فاذا دق الرجل مهباجه فكأنما ينادي الناس إلى شرب قهوته ، ولذلك اشتهر أهالي جديدة مرجعيون بكثرة مهابيجهم .

« وكَفَّ جَبَانٍ قلَّدُوهَا مُهَنَّداً »

لُقِّب « مدحت باشا » بأبي الدستور العثماني ، لأنه واضع أول دستور في تاريخ السلطنة العثمانية ، بعد عزل اثنين من أكبر سلاطينها : عبد العزيز ومراد الرابع ، وإجلاس عبد الحميد الثاني على عرش الاستانة سنة ١٨٧٦ .

كان عبد الحميد من دهاة الرجال فبادر إلى تعيين مدحت باشا والياً على سوريا ، بحجة العمل على اعادة الثقة بين الباب العالي والعرب ، لما كان لمدحت باشا من محبة في قلوبهم ، بعدما تبين لهم ان سلطنة بني عثمان أصبحت نيراً على رقاب المسلمين ، ولم تعد خلافة وامارة للمؤمنين .

والواقع ان عبد الحميد كان يريد ابعاد مدحت باشا عن مركز القوة في عاصمة البلاد ، للحد من مداخلاته ، وللانقضاض عليه في الوقت المناسب ، وهذا ما حدث فعلا حين أقدم عبد الحميد ، بعد مدة وجيزة ، على الغاء الدستور

واعتقال مدحت باشا واعدامه وتعيين حمدي باشا واليا على سوريا مكانه .

والمعروف ان الشيعة في بلادنا كانوا قد رفضوا مبايعة بني عثمان بالخلافة ، ففتك بهم السلطان سليم الفاتح العثماني ، وذبح عشرات الالوف منهم في سوريا ولبنان ، ولذلك بقي شيعيو جبل عامل مواطنين من الدرجة الثانية ، حتّى تولى مدحت باشا ولاية سوريا ، فأصلح أحوالهم ورفع شأنهم ، وأكرم زعماءهم ، فأعاد اليهم ثقتهم بنفوسهم وبالدولةالعثمانية .

وكان من جملة أعمال مدحت باشا ، انه جعل منطقة مرجعيون قائمقامية ، بعدما كانت ناحية تتأرجح تابعيتها بين هونين والنبطيه ، وأقام خليل بك الاسعد قائمقاما عليها .

وعندما تولى حمدي باشا ولاية سوريا سنة ١٨٨٣ ، نقل خليل بك الاسعد إلى مركز آخر ، وعين رشيد بك اباظه قائمقاماً على منطقة مرجعيون .

والذي نعرفه الآن هو ان خليل بك الاسعد ، كان قد جعل قرية كفركلا مركزاً لقائمقاميته ، ولما جاء رشيد بك اباظه ، نقل مركز القائمقامية من كفركلا إلى جديدة مرجعيون ، اما لماذا فعل ذلك ، فعلمه عند الله ، ويقال :

ــ ان رشيد اباظه ، لكونه من الطائفة السنية ، فضل مساكنة النصارى على مساكنة الشيعة .

– انه كان صاحب شخصية مستقلة ولذلك أبعد مركز قائمقاميتة عن بلدة « الطيبة » مركز زعامة آل الاسعد .

– ان الحاج محمد العبد الله ، الذي كان في ذلك الوقت بدأ يلعب دوره في أحداث المنطقة ، هو الذي حرض رشيد اباظه على نقل مركز القائمقامية ، اضعافاً لنفوذ آل الاسعد ، وقد راجت في ذلك الزمان عبارة عن لسان الحاج محمد وهي « كل بيت في الجديدة سرايا والارملة فيها حاتم طي » .

– ان اهالي جديدة مرجعيون ، عندما أنسوا عند رشيد اباظه رغبة بنقل مركز القائمقامية ، إلى احدى القرى المسيحية ، بادروا إلى جمع التبرعات ، وشرعوا حالا ببناء السراي الموجودة حاليا ، ووضعوا الدولة ، بذلك ، أمام الامر الواقع ، مع العلم ان الياس ابو سمرا ، أحد أكبر زعماء المسيحيين في تلك الايام ، بادر حالا ، إلى بيع أملاكه في ابل القمح والمطلة والخريبة ، وشرع هو الآخر ببناء سراي من ماله الخاص في قرية ابل السقي ، الا ان الاجل لم يمهله لاكمالها ، فبقيت بلا سقف ، وما زالت جدرانها قائمة حتى الان وهي غاية في الفخامة والاتقان .

وقد عثرنا على أبيات من الشعر لاحد شعراء جبل عامل في ذلك الزمان يمتدح بها خليل بك الاسعد ، وينتقص من قدر رشيد اباظه ، بسبب كرم الاول وبخل الثاني ، ومنها هذان البيتان :

« ونار القِرى تدعو القُرى ان تفضلوا
إلى الزاد في دار الخليل ابن أسعدِ
ولا نار في بيت « الرشيد » فيصطلى
ولا قدر تغلي عنده فوق موقدِ »

ثم يشكك الشاعر بولاء الذين عينوا رشيد اباظة قائمقاماً فيقول :

« وكف جبانٍ قلّدوها مهنداً
فأي ولاءٍ عندهم للمهندِ »

* * *

« وايزمن » يتردد على الحولة

روى لنا العقيد السابق الشيخ نعمان ابو شقرا ، انه عندما كان رئيساً لطاقم جندرمة مرجعيون ، سنة ١٩٢٢ – وكان لبنان يومئذٍ ما زال مصرّاً على الاحتفاظ بالحولة ، التي كانت حتّى ذلك الوقت جزءاً من قائمقامية مرجعيون – تلقى ، أي العقيد ابو شقرا ، امراً من قائد بلوك الجنوب الشيخ خليل الخازن مآله : « فهم ان الصهيوني « وايزمن » يتردد على الحولة، فعليكم بث الارصاد للقبض عليه » .

« لاشَوْر ولاَدَسْتور[1] »

منذ سنوات قليلة خلت قررت بلدية جديدة مرجعيون هدم المنارة التي كانت ما تزال قائمة في ساحة البلدة ، منذ أكثر من نصف قرن ، وذلك تسهيلا لسير السيارات ولانتفاء الحاجة اليها ...

وفيما بدأ العمال الهدم تجمع حولهم عدد من المتفرجين الذين أرادوا ان يلقوا نظرة أخيرة على منارة بلدتهم .

فقال احد الشبان : « المنارات لا يجوز ان تهدم ، ويكفي هذه المنارة انها ، قبل عهد الكهرباء عندنا ، كانت قد أنارت سبيلنا بقنديل على الكاز ، ويجب ان نحافظ عليها رمزا لانارة الاذهان » .

فأجاب أحد الشيوخ : « لا بل يجب ان تهدم لانها تذكرنا

---

(١) نشرت في القلم الصريح

بمظالم العثمانيين ، اذ ان احد ضباط الدرك في ذلك الزمان ، كان قد أصدر أمرا اعتباطيا باعدام رجل من قرية صفد البطيخ ، فساقه رجـــال الدرك إلى هنا ، حيث علقوا حبلا في هذه المنارة وشنقوا الرجل أمامنا » .

وكان المار إلى شمالي هذه المنارة ، يشاهد لوحة من الرخام مكتوب عليها « شيدت هذه المنارة بهمة القائمقام حمدي بك الجلاد سنة ١٩٠٨ » .

وحمدي بك هذا ، كان من أشهر الحكام الذين تولوا قائمقامية مرجعيون ، على الاقل بالنسبة إلى بلاطة الرخام هذه، التي بقيت تحدث بأفضال الرجل أكثر من خمسين سنة .

وفي عهد حمدي بك وصل إلى بلادنا اختراع قنديل « اللوكس » على الكاز ، والذي كان يومئذ من أهم الاختراعات الحديثة ، ومن واجبنا الان ، ان نعترف بأن الرجل كان مصلحاً فبادر حالا إلى بناء هذه المنارة ، وإلى تعليق أول قنديـــل « لوكس » في مرجعيون ، وربما تم ذلك بحفلة رسمية .

في تلك السنة بزغ نور فجر جديد ، ربما صح اعتبار منارة حمدي بك رمزا له ، ذلك هو فجر الدستور العثماني ، الذي فجرته جمعية الاتحاد والترقي على رأس السلطان عبد الحميد ، ولم تلبث ان خلعته وأعلنت دستورا شعاره : حرية ، عدالة ، مساواة .

وفي ضوء هذه الشعارات توجه ، في أحد الايام ، وفد من وجهاء مرجعيون إلى حمدي بك ، وقدم له شكوى على ضابط الدرك حسن اغا القره شلّي ، الذي قيل بانه كان اميا لا يعرف القراءة والكتابة ، والذي كان يومئذ قد أقدم على ضرب واعتقال احد المواطنين بدون اي مسوغ قانوني .

فاستدعى حمدي بك الضابط « القره شلّي » وسأله عن قضية اعتقال الرجل المذكور ، فقال: « وحياة رأس مولانا السلطان عبد الحميد ان الرجل كان يسب السلطان علنا أمام الناس » .

فضحك حمدي بك وقال له: « اما بلغك حتّى الان ان السلطان عبد الحميد قد سقط عن عرشه ، واننا الان لا نحكم باسمه ، بل باسم الدستور الذي ينص على احترام حريات المواطنين .

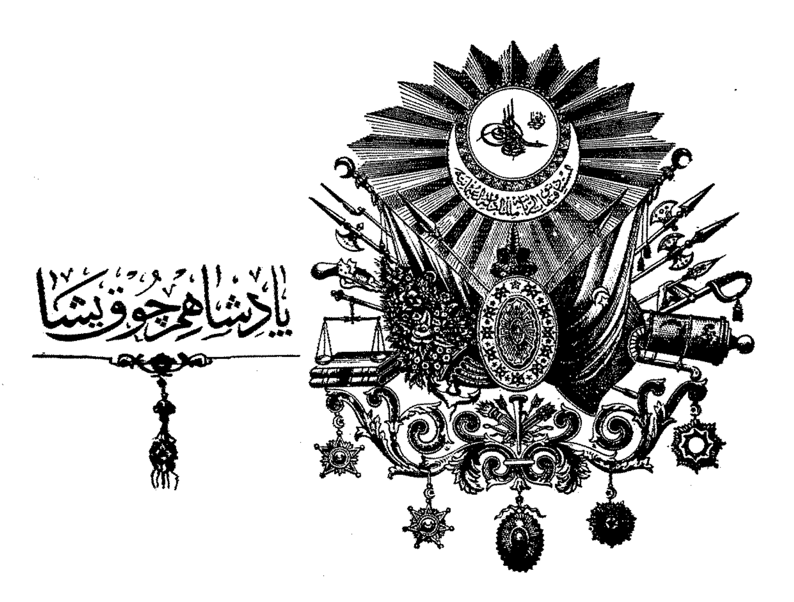
فأجاب الضابط: « وحياة راس مولانا « الدستور » ان الرجل كان يشتم أكبر راس في الدولة » .

وهكذا فان كلمة «دستور» كانت قد وضعت في التداول لاول مرة ، فظنها ضابط الدرك اسما لسيد جديد تولى الحكم في الاستانة ، خلفا للسلطان عبد الحميد .

وشاع بعدئذ استعمال كلمة « دستور » بين العامة « فعمموها » أي جعلوها كلمة عامية ، واستعملوها حسب الملاءمة .

ولم يكن عندنا قبل ذلك ، أية كلمة او عبارة نستعملها في مناسباتنا ، كما يستعمل الفرنسيون كلمة « باردون » والانكليز عبارة « اكس كيوز مي » في مناسباتهم ، فجاءت كلمة دستور وسدت حاجتنا ، وصار الواحد منا اذا أراد ان يمر أمام رجل محترم ، قال « دستور » ، واذا طلب من رفيقه ان يناوله الابريق ، قال له « دستور بها الابريق » ، واذا تصرف أحد بما للآخر بدون علمه قال له هذا ، وبصورة الاستفهام « لا شور ولا دستور » ؟ مع العلم ان كلمة « شور » هذه « معممة » من كلمة « شورى » والله أعلم .

* * *



الشعار العثماني ، بعد اعلان الدستور ، وقد وضع فيه كتابان ، تحت ميزان العدالة : الاول يرمز الى الشرع الاسلامي ، والثاني الى الدستور العثماني

شعار سلطنة بني عثمان

قبل وضع الدستور العثماني ، كان شعار السلطنة يتضمن صورة كتاب تحت ميزان العدالة ، إلى يسار الشعار ، وهــذا الكتاب يرمز إلى الشرع الاسلامي الذي تقوم عليه عدالة بني عثمان . وعندما اعلن الدستور اضيفت صورة كتاب آخر يرمز إلى الدستور العثماني ــ الصورة في الصفحة التالية ــ

« بيحُطّوا الحاكِم ولَدْ كيفْ بَدّو يعِرْف يِشْسَيْسَر ! »

عُرضت يوماً على محكمة صلح مرجعيون دعوى مآلها ان راعي عجّال احدى القرى قتل عجلاً من البقر ، فتقدم صاحب العجل بدعوى عليه طالبا ثمن العجل . وكان القاضي ، يومذاك ، شابا ربما أعوزته الخبرة بمثل هذه القضية . فتساءل عما اذا كان يوجد عند الأهالي عرف خاص او قوانين محلية لفض الخلافات التي تنشأ غالبا بينهم ويُقضى بها محلياً .

وكان مختار ابل السقي حاضراً ، فقال : « يوجد الان خارجاً ، معاز من ابل السقي مطلوب للمحكمة بموضوع آخر ، وهو خبير بمثل هذه القضايا وبامكان المحكمة ان تسمع رأيه بالموضوع . فجيء بالمعاز وسأله القاضي : « اذا قتل الراعي راساً من الماشية فما هو حكمه ؟ » فقال :

— « ان راعي الماعز اذا قتل راساً من الماعز بالحجر فهو غير مسؤول ، اما اذا قتله بالعصا فيغرّم بثمنه . وأما راعي

البقر فاذا قتل راساً من البقر بالعصا فهو غير مسؤول ، واذا قتله بحجر فيغرم بثمنه . ذلك لان اداة رعاية الماعز هي الحجر وأداة رعاية البقر هي العصا ، فاذا قتل الراعي راساً من الماشية بالاداة المخصصة له فهو غير مسؤول عن عمله » .

فأعجب القاضي بفتوى المعاز وأصدر حكمه بالاستناد اليها . ثم رفع إلى وزارة العدل نص مطالعة معاز ابل السقي للرجوع اليها عند الحاجة .

أما المعاز هذا فهو خليل نهرا ، الذي كان ما زال حياً يرزق عند كتابة هذه القصة . وقد سألته يوماً عنها ، بعد مرور أكثر من ربع قرن عليها فابتسم وقال : « بيحطّوا الحاكم ولد ، كيف بدّو يعرف يتسيسر ! » .

وأضاف خليل نهرا قائلاً :

— « اذا قتلت حماراً محملا تدفع ثمنه واذا كان غير محمل فالقضية فيها نظر . واذا قتلت حصانا ملجوماً تدفع ثمنه ، واذا كان غير ملجوم فالقضية فيها نظر . واذا قتلت كلبا داخل أملاك صاحبه فأنت مسؤول ، فاذا قتلته خارج أملاك صاحبه فأنت غير مسؤول » .

ثم أكد كلامه فقال :

— « لا يحق لك ، في أي حال من الاحوال ، ان تقتل حماراً محملا او حصانا ملجوماً او ثوراً مكدونا تحت النير او كلباً في أملاك صاحبه » .

« وَصِرْتُ اليَوْمَ « أحْلَمُ » بِالرّغيفِ »

يقال ان الشاعر الشلفون كان يتغنى في أواخر أيامه بالابيات التالية :

« اساثلُ أين فر المـــوت مني
وقد أسرعت في طلب الحتوفِ
وكنت لكـــل مكرمة أخاهـــا
ولي شغفٌ بإطعام الضيـــوفِ
واحلم بالرغيف ، بـــلا حساب
فصرت اليوم « أحلم » بالرغيفِ

والمفهوم هنا ان كلمة « احلم » الاولى تعني « اجود » ، والثانية « ارى في منامي » ، فمن هو هذا الشاعر الذي كان يجود بالرغيف ، بلا حساب ، فصار يراه في منامه ، من شدة جوعه ، حتى تمنى الموت فلم يحظَ به .

كنت لا أزال حدثاً عندما توفي والدي في احدى سنوات

الحرب العالمية الاولى ، وقبل ان تجف دموعنا عليه ، قرع باب بيتنا رجل غريب يلبس « غمبازاً » مهلهلاً ، ودخل وأخذ يبكي على والدنا ، وعلى سوء حظه في نفس الوقت .

وكانت قريتنا ابل السقي ، يومئذٍ ، ملاذاً للكثيرين من اللبنانيين الهاربين من الجوع ، لانها كانت من قرى ولاية بيروت ، فبقيت ، لذلك في منأى عن سياسة التجويع التي فرضها الاتراك على جبل لبنان في ذلك الزمان ، وكانت مداخيل ابل السقي الزراعية تكفي لاطعام عدد كبير من النازحين اليها .

ولم يكن القادم الغريب الينا في ذلك النهار ، سوى واحد من هؤلاء النازحين ، عرّفنا بنفسه فاذا هو الشاعر ملحم الشلفون الذي كانت تربطه بوالدنا صداقة قديمة في السراء ، فأراد أن يلوذ به في الضراء ، الا انه وصل بعد فوات الاوان .

على كل حال أكرمنا وفادة الشلفون ، وقمنا بواجبه ، الا ان الرجل كان خائر العزم منهوك القوى ، لم تلبث ان ظهرت عليه أعراض مرض وبيل تبين أنه داء التهاب السحايا . فمات ثم لحقت به ، متأثرة بدائه ، احدى شقيقاتي .

واستشرى مرض الشلفون — كما دعي اسمه حينئذٍ — في القرية وأخذ يحصد أبناءها ، الواحد بعد الآخر ، حتى بلغ عدد ضحاياه أكثر من سبعين ضحية ، بالاضافة إلى عدد من النازحين إلى القرية ، الذين هربوا من برائن الجوع في جبل

لبنان فوقعوا في أشداق مرض الشلفون ، في ابل السقي .

وفي احدى رسائله إليّ يذكر المؤرخ الشيخ سعيد فرنسيس تحت عنوان « الشلفون ابو الشلاليف الراقد بين أمواتكم » ان ملحم الشلفون ، الملقب بـ « ابو الشلاليف » ، هو من حارة حريك ومن عائلة الشلفون المعروفة التي أنجبت عدداً من الشعراء والعلماء ، وانه قدم اولا إلى القليعة وأقام مدة عند آل فرنسيس ، ثم جاء إلى ابل السقي ، وكان ما كان .

ويقول الشاعر بولس سلامه ان الشلفون مر ، يومئذٍ ، في « بتدين اللقش » ، قرية بولس سلامه ، وكان بحالة يرثى لها ، فسأله بولس الذي كان ما زال فتى يافعاً ، عن اسمه ، فقال :

« انــا الشلفون شالوفي غدا في الناس شلالا
انــا رجل اخو علــم ولكن معــدمٌ مالا »

« المَعَرّي شَافَ الخَمْرَه وَوَصَفْها »

كان اميل لحود علماً من أعلام القانون وأميراً من امراء المنابر ، الا انه قبل كل ذلك ، كان سيداً من أسياد الظرف والطرافة وخفة الدم ، يتنافس أذكياء الناس على مجالسته ويتوقون دائما إلى منادمته .

جمعنا به ، في احدى الليالي ، مجلس شراب في بيت شقيقه حليم لحود ، ضمّ لفيفاً من الادباء والمتذوقين ، وعندما امتزج وحي الكؤوس بانسجام الارواح والنفوس ، وفقني الله بردة من الزجل ، فقلت :

ردّ نفسك عن صلفها عندمـــا تبلغ هدفهـــا
وفض ابكار القنانـــي بس ما تدنس شرفها

فأجاب اميل لحود فوراً :

كِـفْ عن سيرة شرفها طالما انّو بطرفهـــا

ابن هـــاني في زمانـــو   من قبل منك عرفها

وكان فواد جرداق ، وهو من أرباب البداهة ، موجوداً معنا ، فقال :

ابن هاني كـــان خيي   ولوط عمي ونوح بيي
وكان الـمعري صفيي   شافها وذاقـــا ووصفها

وكان من المفروض ان تستمر تلك المناظرة ، على هذا المستوى من الفن والجمال ، لو لم يعترض أحد الحاضرين بقوله : « كان المعري أعمى فكيف « شاف » الخمرة حتى وصفها » .

مع ان هذا الرجل ، لو كان عنده شيء من الذكاء ، لشعر ان أجمل ما في تلك الردة ، هو كلمة « شافها » المنسوبة إلى أعمى المعرة .

لذلك أجاب الجرداق بشيء من الحدة : « من قال ان المعري أعمى ، انه كان بصيراً ، ولكنه كان يتعامى حتى لا يرى ثقلاء الدم ، الذين قال عنهم :

« كرهتُ منظرهم من سوء مخبرهم
لذا تعاميتُ حتى لا أرى احدا »

وهكذا فقد أجاد الجرداق في مقوله ومنقوله .

صَفحات مَطوِيّة مِنَ المُناظَراتِ الجرداقِيّة

قلنا مرة لفؤاد جرداق : « صف نفسك » ، فقال : « شاعر ثائر كافر » ، قلنا : « وما شأنك بالحب » ، قال « خاسر » ، قلنا : "وبالمال"، قال:« طافر » ، قلنا :« وبالخمرة » قال : « انها شر الكبائر » .

ذلك لان الجرداق كان قد عاقر الخمرة وسكر بها سكرة دائمة أكثر من ربع قرن ، ثم صحا على انهيار في صحته ومصلحته وكيانه العائلي ، فتاب عنها دفعة واحدة .

وكان قد نظم في ابان نشوته أجمل أشعار الغزل والوطنية والفخر ، وقاد المظاهرات ودخل السجون وألقى الخطب الحماسية وهو نشوان بابنة العنقود .

وعندما هجر الكأس صار رجلا كثير التبصر ، بعيدا

عن مجالس الانس وميادين الجهاد ، حتى ظن الناس أنه أصبح رجلا آخر .

وأحببت ان أداعبه يوما بأبيات اذكّره فيها بعلاقته بالخمرة وأدعوه للعودة اليها فنشأت بيننا مناظرة شعرية كان منبرها جريدة « القلم الصريح » .

قلت :

نادتــكَ بنتُ الدوالــي   فيــا « فؤاد » تقــدَّمْ
وقــم إلى الــراح واغــنم   من حبها كــل مغنم
حسنــــاء ذات دلال   في كــأسهــا تتبسم
كــم ألهمتــكَ بيانــاً   وكــل بيت منظــم
فان نظمتَ فروح الخيّــام   فيــك تجســم
يقول : هــات الحميّــا   ومتّــع النفس وانعم
فليس فــي العيش كســب   سوى الملذات ، فاعلــم
ولا تخــف يــوم حشر   فــالله ربــك يرحــم
وان تكلمــتَ قالــوا   ابــو العــلاء تكلــم
« ان اليقــينَ ضــلال   والشك « لا شك » أسلم
والعقل – لا الدين – يهدي   إلى المصــير المحتّم
وان نطقــتَ بكفــرٍ   حبّبتنــا بجهــنم
أهــل البصــيرة فيهــا   وكــل فــذ معلــم
فنارهــا مــا تلظــت   وجوّهــا مــا تجهــم
قد ضمخــوه بعطــر   الافكــار حــتى تبسم

وان مشيتَ فجيــــش   مــن الرجــال عرمرم
مظاهــرات احتجــاجٍ   وثــورة تتقـــدم
وبعــد كــل خطــابٌ   تلقيــه بالحبس تحكــم
لكنمــا ذاك عنـــدي   هو الــوسام المعظم

* * *

فكــل هــذي المــآتـي   مــن نشوة الخمر تلهم
يــا شاعر المرج غــرّد   بوحيهــا وترنــم

فأجاب الجرداق قائلا :

بخمــرة الــدن والفــم   كنتُ العميــد المتيّم
فمــن رضاب لماهـــا   حسوتُ شهــدا وبلسم
ومــن شعــاع ضياهــا   نسجــت فكــرا منمنم
فكــم قضيــت زمانــا   بحبهــا اترنـــم
وكــم سلخت ربيعــاً   بوصلهــا اتنعــم
وكــم سهــرت الليــالي   عبيرهــا أتنسم
افــي الدجى وبنـــات   الكؤوس بالشم والضم
كــم هام قبــليَ فيهــا   نوح وعيسى ابن مريم
وفــي النعــيم لطـــه   لهــا المكــان المكــرم
وفي ريــاض نداهـــا   الخيــام حط وخيّــم
واخطــل الشعر كــم ذا   بهـــا شدا وتنغــم
وقــال فيهــا ابن هــاني   قصائــداً وتكلــم

فـــي بعلبــك عليهـــا باخوس صلى وسلـــم

* * *

بقيــتُ استـــــل روح الصهبـــاء مغرى ومغرم
حـــتّى استحالت فجرت عـــلي شرا مجســـم
فؤادهــــا يتلظـــــى ووجههـــا يتجهـــم
خانـــت عهـــود غرامي وخلفتـــني معـــدم
صحوت فارتـــاب عقلي من حبهـــا وتـــبرم
وأصبحت ان حساهـــا الفؤاد صابا وعلقـــم
فكـــل فكـــرٍ شرودٌ وكـــل عضـــوٍ مسمم
طلقتها كطـــلاق الاسلام أبقـــى وأسلـــم
وعفتهـــا التجافـــى عـــن الحـــرام المحرم
لانهـــا لا تراعـــي خـــلا ولا هـــي ترحم
فحقهـــا ان تـــردّى في الهاويـــات وترجم
لقـــد ندمـــت وهـــذي هي الفضيلة ، فاعلم
ورحـــت أغسل نفســـي من كـــل رجس ومأثم
لا خير في الحب يبـــني هـــواه صل وارقـــم

* * *

سلامُ قلـــتَ بـــــان الخمـــار لي الشعر الهم
وانَّ بنـــت الدوالـــي بحانهـــا نتعلـــم
عزوت فـــرط نبوغي لجامهـــا وهو ملجم

ذي حجـة لا تراعـى ومنطـق لا يبلسم
أعمـى المعـرة عنها نهـى فكـان المقـدم
اتـزدري قـول هـذا الحكيم وهـو المحكم
وفي القديـم نهانــا عنهـا الكتاب المعظم
بـي ثـورة تتلظـى من قبل موسى واقدم
وليس للخمـر شأن بوحي شعـري المنظم
ان غـاب ليل الحميـا عـني وصبحي تبسم
نفـرت نفـرة ليـث وصلت صولة ضرغـم
اسطو عـلى كـل جور وكـل ظلـم منظـم
وكـل دجـال ديـن مقلنـس ومعمـم
وكـل من برقـاب الشعوب عسفا تحكـم
مهاجمـا كـل بـاغ عـلى البـلاد تهجم
فتـارة بلسانـي اسطو وطـوراً بمرقم
اذا نظمـت قصيـدا فبالعـواصف مفعـم
وان كتبـت مقـالا فبالصـوارم والـدم
كـم ثورة لـي كانت عـلى الطغـاة جهـنم
عـليّ لمـا رآنـي ابليس رضّى وصلعم

* * *

انـي تعجبـت لمـا بالخمر أصبحتَ مغـرم
من بعد كـرهـي وبغضي لهـا ومقـتي المجسم
ذهبتَ تبحـث عنهـا سراً بكـل مخيم

حــتى علقتَ هواهـــا كأنها ام هيـــثم
سلام ايـــاك منهـــا فهي الحمـــام المحـــتم

فرددت على الجرداق بالقصيدة التالية :

وافت خريـــدتـــك العصمـــاء تنتثرُ
في صدرهـــا غرر الآيـــات والصورُ
حسنـــاء نزّهتَها عن كـــل مبتـــذلٍ
من التبرج ، حسب الغادة الخفـــر
لاحـــت مفاتنهـــا للعـــين وانتشرت
مثل العناقيد في الاغصان تنتشـــر
عصرتها في دنـــان الوحي فاختمرت
مثل العصير الذي في الدن يختمر
أذكت لهيب الجوى في النفس فاستعرت
كالنار في « كركات » الحمر تستعرُ
سكبتها في كؤوس الفن صافيـــــة
ورحت تمزجهـــا سحراً لمـــن سحروا
كخمرة مزجت بالمـــاء ، واعطشي
إلى السلافة تصفو ثـــم تعتكـــر

* * *

لكنها من عيوب النقـــد ما سلمـــت
يا ليتها سلمت من كل ما يـــزر

تقول : طلقت بنت الحان مفتخـــرا
ابالطـــلاق وبالتطليـــق تفتخر
وتدعي انهـــا خانت هـــواك ولـــم
تحفظ عهود الهوى لو يصدق الخبر
اتهمتها بشرور الأرض قاطبـــة
وكـــل موبقة هب انها « الدّلَرُ »
وقمتَ في آخر الايـــام تشتمهـــا
كأنهـــا دولة تطغي وتحتكـــــر
فهـــل ترى اخترعتها الانكليز لنـــا
حتى يشكك في مضمونهـــا البشرُ
وهل خشيتَ على الطلاب تحسبهـــا
كالطائفية منهـــا الشر والشرر
فرحتَ تغسل اثم النفس محتقـــرا
عهد المرام وعن ماضيك تعتـــذر
كأنمـــا كنتَ من أسيـــاد امتنـــا
باعوا فلسطين والتاريـــخ يحتقـــر

* * *

يا أيها البلبل الشادي عـــلى فنـــن
غرد فليس يـــدوم الزهر والثمـــر
ومتع العيش وأنعـــم من لذائـــذه
ولا يهمك طول منـــه او قصـــر

فسينما العمر نستحـــلي مشاهدهـــا
وتمحي بعدهـــا الاشباح والصـــور
والعمر كالشعر أحـــلاه وأعذبـــه
عـــلى الدوام مفيد منـــه مختصـــر
فعد أمير الندامـــى في مجالسنـــا
ما نحن ممن اذا جالستهم سكـــروا
الا بما تلهم الصهباء مـــن جـــذل
تطوف في جوه الاحلام والفكـــر
قد قال جبران قولا لست تجهلـــه
الخمر للوحي لا للسكر تنعصر

فرد علي الجرداق بالقصيدة التالية :

بيـــان سحرك منظـــوم ومنتثر
وعطر شعرك عباق ومنتشر
سلامُ يا دوحة في المرج سامقـــة
يزهو بهـــا الطيبان الزهر والثمـــر
بظل افنانهـــا الغبياء طـــاب لنـــا
في روضك المؤنسان الخمر والسمر
فالخمر شعرك والانسام ساقيـــة
بها انتشى المعشران البدو والحضر
أرسلتَها تنشر الاطياب عابقـــة
يزينها المنطقان العقل والبصـــر

لا كابنة الدن في الراووق منتنـــة
يعافها الشاعران الانف والنظـــر
ذميمـــة الخلق لا نبل ولا شيم
دميمة الخلق لا حسن ولا خفـــر
سل لوط عنها وسل نوحاً وما فعلت
يقف لها الشعر ، والاحشاء تنفطر
عـــلى منابرها الآثـــام جـــالســـة
وفي مجالسها الاخلاق تحتضر
سلامُ أنت مريـــد الخير كيف بها
تهيم وهي بجـــام الشر تستعـــر
اني أشك بعيشق منـــك مصطنـــع
والشك في هذه الأيـــام ينتصـــر
ما أنت الا حبيب « للفؤاد » رمى
سهم الهوى بفؤادي وهو يندثـــر
ورحتَ توريـــة بالشعـــر توقظني
ولي صديقان ، نجم الحب والسهر
وبالطلاق وبالتطليق تتهمـــني
اين التطور والتجديـــد والفكـــر
تبغي البقاء عـــلى حال نساء بهـــا
حاشا لمثلك هذا الخوف والخـــور
والله لو حَسرتْ عـــني أشعتهـــا
شمس الضحى طُلقت ، واستهدف القمر

ان كان من اصطفي بالشر يؤلمـــني
فانمـــا أنـــا بالتطليق افتخــــــــر
فالشر مصدره خمـــر او امـــرأة
الله يشهـــد والشيطـــان والبشـــــر
تقول : هل خمرتي الدولار خمرها
ام العلوج لنا عسلوجهـــا عصروا
ام كنتُ في العرب نخاساً لأغسل ما
له التواريخ والاجيـــال تحتقــــــر
ام انني أختشي الطلاب تحسبهـــا
كالطائفيـــة منهـــا الجهل والضرر

* * *

نعم هُديتَ فلولا الانكليـــز رشت
بنا الطغاة ولولا ذلك « الدّلَرُ »
لما حساها ذئاب الغـــدر اذ كلحت
وجوههم ، وكلاب الحي اذ سعروا
ولا اصطفاها رجـــال الدين مفسدة
وساسة العرب في حاناتهـــا بطروا
فأي قوم تجافوهـــا ومـــا اصطلحوا
وأي قوم تعاطوهـــا وما كفـــروا
لذاك طلقتها كرهـــا بعاشقهـــــا
فاحذر مصاحبة الاشرار مـــا أشروا
واقنع بقولي هـــداك الله مفتخـــرا
بحكمـــة في كلام كلـــه غـــرر

مَعْرَكَة الخَمْرَة

عثرت لدى تسجيل هذه التذكارات على عدد قديم من جريدة القلم الصريح انقل ما جاء فيه بموضوع الخمرة قال :

لا شك ان قراءنا يتشوقون إلى متابعة تطورات معركة الخمرة بين الشاعرين الصديقين فؤاد جرداق الذي طلق الخمرة على شريعة « مكره اخوك لا بطل » وبين سلام الراسي الذي يحتسيها على مذهب « قليل من الخمر يفرح قلب الانسان » .

وكانت طليعة المعركة تلك الابيات التي نشرناها في أعداد متتابعة ماضية والتي دعا فيها الراسي زميله الجرداق إلى الرجوع عن طلاق الخمرة باعتبارها مصدر الوحي والالهام ، والتي أصر فيها الجرداق على طلاق الخمرة باعتبارها مصدر الشرور والمآسي .

لم تكن الخمرة وحدها هي موضوع الخصام بين الشاعرين فحسب ، فقد لاحظ القراء ان أهدافاً وطنية كانت تكمن وراء

موضوع الخمرة يثبت ذلك هذه الابيات التي تلقاها صاحب القلم الصريح من الشاعر الفلسطيني السيد موسى الشحاده موجهة إلى الجرداق والراسي :

لا الراحُ شأنكما ولا الاقداحُ لكنما هي خطـة وكفـاحُ
تتطاعنان فتطعنان ذوي الخنى يا حبذا شطط السهام مزاح
انا من فلسطين التي بيعت وقد كتب الصكوك احبة اقحاح
بالله قولا لي اما من رجعـة تاقت إلى ذاك الحمى الارواح
ألوي على صفدٍ اقبل تربـة فيها ينام اخي الشهيدُ صلاحُ

ابت حشرية الصديقين الشاعرين الجرداق والراسي الا ان يفتشا جعبة القلم الصريح ليعثرا على ما يهمهما فكانت الابيات المذكورة الهدف وكان جوابهما عليها سريعاً قال الراسي :

« القلم » مـأساة وفيـه نواح
وبكـل عين أدمـع وجـراح
ما بين مخرجها ونـاسج بردها
وممثليهـا تقسم الاربـاح
ونظل نندب حظنـا ومصيرنا
وإلى الحمـى تتلفت الارواح
لا الراح تشغلنا ولا أقداحهـا
لكنمـا هي خطـة وكفاح
كي لا تمثل في البـلاد رواية
اخرى وتظهـر تلكـم الاشباحُ

وقال الجرداق :

دع ذكر ما دارت به الاقداحُ
فالجد جد والمزاح مزاحُ
والعب بسادرة الحتوف كأنها
خود يرنحها السلاف رداح
قل للألى باعوا البلاد وشردوا
ولها المكايد اضمروا وأباحوا
الغدر قد دهم الاباة فجردت
للثأر من غمد الجهاد صفاحُ
كل الجزيرة في الوغى «صفد»
وكل العرب في ساح النضال «صلاح»
فإلى فلسطين العزيزة مالهم
عود ولا بظلالها نرتاح
الا اذا زفر الحديد بكفنا
فالعود أحمد والجزاء مباح

مَنْ هَجَا النَّاسَ هَابُوه ، وَمَنْ هَجَا نَفْسَهُ أَحَبُّوه

في أواخر كانون الثاني سنة ١٩٥٩ ، أصدرت الحكومة قراراً بحل مصلحة التعمير وتصفيتها ، وحددت آخر الشهر موعداً لانهاء خدمات موظفيها الذين كنت في عدادهم .

في هذه الاثناء راجت اشاعة ان بعض موظفي وزارة الاشغال العامة والنقل سيأتون لتسلم مهامنا ، فخطر ببالي ان أودع مكتبي ببيتين من الشعر كتبتهما على قصاصة وضعتها تحت لوح الزجاج الذي كان يغطي طاولتي ، لكي يقرأهما من يأتي بعدي ، قلت :

وداعاً مكتبي وانعمْ بمقدم هيئـــة أخرى
اذا مـــا هيئة ولّـــت تولت هيئـــة اخرى

ولم أشكل الهمزة في كلمة "اخرى" حتى يقرأها من يخلفني في مكتبي كما يشاء ، او كما يفهم نفسه ، ولكن حدث ما لم

يكن بالحسبان ، فاستدعاني المدير في ذلك النهار وأبلغني قراراً وزارياً باستبقائي قيّماً على موجودات دائرة التنفيذ ، بعد صرف موظفيها .

فعدت إلى مكتبي وأخبرت زملائي بما حدث ، فأشار أحدهم إلى القصاصة وقال : « اذن عليك ان ترد على نفسك ببيتين آخرين من الشعر ، اذ لا يوجد بيننا شاعر آخر » . فقلت :

عزاءً مكتبي واتعس بنا في جولــة أُخــرى
رجعنا حين لم يجــدوا سوانــا هيئةً أَ ...

وذاعت هذه الأبيات في أوساط الموظفين وفي مجالس الظرف والادب ، فاكتسبت شهرة تقصر عنها عشرون قصيدة من قصائد الفخر .

أخيرًا، إلى هنا أعانني الله

الشهرة عبء ثقيل على كاهل صاحبها ، فكيف اذا اشتهر الانسان بما لا خير منه ولا فائدة . فمنذ نشرت كتاب « لئلا تضيع » في العام الفائت جرى في ظن الناس انني « بيدبا » لبنان في القصص والحكم والامثال وصاروا يتوافدون عليّ ، في مناسبة وغير مناسبة ، وعلى موعد وبدون موعد ، يسألونني : من قال كذا ، وفي أي تاريخ حدث كذا ، وما هو أصل هذا المثل او أساس ذلك القول المأثور .

ومع اني كنت قد تعلمت منذ حداثتي المثل القائل : « البطّال لا تعالجو بيعملك شغلتو ! » ، فقد تخلّت عني العناية الالهية ووقعت أخيراً في أيدي بعض البطالين الذين « عملوني شغلتهم »، وصاروا يستوقفونني في الشارع أحيانا ليجادلوني في أصل المثل القائل : « الفاجر أكل مال التاجر » .

او يتصل بي أحدهم هاتفياً ، في الصباح الباكر ليروي لي قصة المثل القائل : « فلاح مكفي سلطان مخفي » .

أما قندلفت كنيسة ضيعتي الذي أضاع أكثر من أربعين سنة في خدمة الذبيحة المقدسة . وفي تلاوة ال « نؤمن » وال « ابانا » ، فقد قرع بابي ، بعد منتصف احدى الليالي ، وقال : « هَرَيتْ طنعشر خوري وعشر شمامسة ولم أفطن الا في هذه الليلة ، عندما كنت أصلي : « ابانا الذي في السماوات » إلى اننا نقول لله عز وجل « أبانا » وللخوري « أبونا » ، فما هو الفرق بين « أبانا » و « أبونا » . قلت :«هذه مشكلة لاهوتية انجق بطرك انطاكية يقدر يحلها » .

ولي صديق موظف اقترب من سن التقاعد يقول كلما تحدث في هذا الموضوع : « صار بدنا الحج خلاص » . فاذا التقاني ثلاث مرات في النهار سألني عمن يكون هذا الحج خلاص ، صاحب هذا القول المأثور ، حتى صرت أنا نفسي أريد الحج خلاص من هذا الزميل الثقيل .

وفي رسالة مضمونة استلمتها مؤخراً يقول فيها أحد المغتربين انه كلما تجادل مع زوجته تقول له : « لا تركّب مقلتي انا ما بحمل زكزكة » . ويريد كاتب الرسالة ان أخبره على جناح السرعة ، عن أساس معنى تركيب المقلة — لعل الرجل يريد ان يركب مقلتي — فلا حول ولا قوة الا بالله .

مرة أنزلني رجل من السيارة ليسألني عن أصل المثل

القائل : « عدّى السبت بط .. اليهودي » ، وعاب عليّ عدم معرفتي أساس هذا المثل البليغ جداً .

وجاءني صديق في أحد الايام يسألني عن أساس كلمة « ولو » التي يستعملها اللبنانيون في أحاديثهم وحتى في أغانيهم : « ولو يا أسمر ولو » و « ولو هيك بتطلعوا منا » .

وجرّني رجل ، ذات مساء ، من زاروب إلى زاروب ومن معبور إلى معبور حتى وقف بي أخيراً أمام بناية في محلة ساقية الجنزير وقال ، نقلا عن والده ، ان احدى مغاور الجن كانت موجودة هنالك ، وكانت بعض الضباع تعيش فيها كذلك ، لان الجن والضباع تتآلف وتتعايش دون سائر المخلوقات ، ولكن ربما فات هذا الصديق أن يخبرني ان الجنية اذا تزوجت ضبعاً أنجبت غولا ، والله أعلم .

وبين مكتوباتي عدة رسائل من أصدقاء يطلبون فيها معرفة أساس عبارة : « شرد مرد » و « سدح مدح » و « فلك حكلتو » و « حط الحزن بالجرن » و « شي تكتك شي تيعا » وما أشبه ذلك .

وأهم من كل هذا ان أحد رجال السياسة ، كلما اضطرب الوضع في لبنان ، يقول : « لا يستفيد من هذه الحالة غير جماعة حنيكر » . فسأله أحد رجال الصحافة ، يوماً ، عمن هو هذا حنيكر وما هي قصة جماعته ، أجاب : « اسألوا صاحب كتاب « لئلا تضيع » .

وهنالك سيدة تتهجم عليَّ الان في مجالسها ، لاني لم أذكر اسم جدها — المرحوم — بين أبطال قصصي . وكثيرون سواها ممن حاولوا اقناعي بعظمة أجدادهم سيصابون بخيبة أمل .

وقد حاول كثيرون ان يستدرجوني إلى البحث في أنساب العائلات في لبنان . وعلم الانساب هذا يهم أكثر الذين هم مثلنا ، وجوههم في ظهورهم ، فلا يقشعون الا ما هو وراءهم . وقد قال عنه ابن خلدون : « انه علم معرفته لا تنفع والجهل به لا يضر » . وفي أحاديثي ومطالعاتي وجدت أكثر من خمسين عائلة لبنانية تدعي انها من أفخاذ قبيلة بني غسان ، ولله في خلقه شؤون .

أمس اعترض سبيلي رجل وسألني : « جمع كلمة « آدم » ، « أوادم » ، فما هو جمع كلمة « حواء » ؟ . فأجبت على البداهة : « جمع كلمة « حواء » ، « حيّات » — بتشديد الياء — . وكانت زوجة الرجل معه فقذفتني بنصف دزينة من التشاقيع ، سامحها الله .

* * *

يحكى ان قروياً هبط إلى المدينة ورأى في واجهة احدى مكتباتها كتاباً موضوعه : « نيل المرام في تفسير الاحلام » ، فاشتراه وعاد به مغتبطاً . وذاع خبر الكتاب بين أبناء القرية فأخذوا يتوافدون على صاحبه الذي كان بينما روى أحدهم ما رأى في نومه وضع نظارتيه فوق أنفه وتناول كتابه وأخذ

يقرأ : الصبي في المنام معناه مصيبة ، والمعزى معناها عز ، والغنم معناه غنيمة ، والماء معناه شدة ، وهلم جراً .

وهكذا ترك الرجل أعماله وأهمل شؤون عائلته ، وكان يختلف أحياناً مع زوجته التي كانت تضطر بحكم التقاليد ان تقوم بتحضير القهوة ، وتعمير الاراكيل ، وتوجيب الزائرين بما تيسر من الحلوى والفاكهة .

أخيراً شكت المرأة أمرها إلى أحد شيوخ القرية ، فوعدها خيراً . وعند منتصف الليل التالي قرع الشيخ الباب ودخل مسرعاً إلى حيث كان صاحب الكتاب نائماً وأيقظه وقال له : « حلمت حلماً غريباً جداً ، فقد وجدت نفسي أمام درج طويل أخذت أهبط عليه بالنازل نازل نازل . . . .

وصار الشيخ يكرر كلمة « نازل » ، فيرفع صوته حينا ، ثم يخفضه ، ثم يغير نبرات صوته ، حتى فرغ صبر صاحب الكتاب فقال : « النتيجة ! »

قال الشيخ : « النتيجة ، بقيت أنزل ، انزل ، انزل ...

قال صاحب الكتاب : « والخلاصة ! » . قال الشيخ : « الخلاصة ، نظرت فوجدت اني ما زلت في أول الدرج فتوكلت على الله وصرت انزل ، انزل ، انزل ...

وهكذا بقي الشيخ ينزل بصاحب الكتاب حتى أنزل الغم على قلبه ، فصاح به : « وبالتالي » ؟

قال : « بالتالي وصلت إلى ساحة فيها عمودين من الرخام ، رفعت أحدهما على كتفي الايمن ، والآخر على كتفي الأيسر وأخذت أصعد ...

فصرخ به صاحب الكتاب : « كفى بالله عليك ، اذا كنت بالنازل بقيت ثلاث ساعات حتى وصلت ، فكيف بالطالع وعلى كتفيك عمودان من الرخام ، اني أقسم لك بشرفي اني قد أضعت الكتاب منذ يومين ولا أعرف شيئاً عن هذا الحلم الغريب » .

يقول الراوي ان زوجة الرجل اشتلقت فقالت لزوجها : « ولو ! يا زلمي طول روحك حتى يكفي الشيخ قصتو ، وفسرلو منامو حتى لا يعتب عليك » .

لكن الرجل أصر على أنه فقد الكتاب ... وتاب ...

« يَا بْقِرِق ، يَا بفِتِقْ ! »

حتى الان ، كانت هذه حصيلة كتابي الاول « لئلا تضيع » فماذا عسى ان تكون حصيلة كتابي الثاني هذا ، يا ترى ؟

— وسام ؟
— مكافأة مالية ؟
— حفلة تكريم ؟
— دكتوراه فخرية ؟

في قرية البرامية قرب صيدا ، وعلى جانب الطريق العام كان أحد العمال يقوم بتقصيب الحجارة في ورشة بناء خاصة . وكنت بحكم وظيفتي أمر يومياً عدة مرات في ذلك المكان ، وكان سائق سيارتي يتمهل قليلا كلما اقترب من العامل المذكور ويقول بصوت مرتفع : « العوافي يا ابن خالتي » .

اما ابن الخالة هذا فكان يرد التحية باختصار دون ان يلتفت او يرفع رأسه لئلا تفوته ضربة من شاقوفه او يخسر دقيقة من وقته . ولم يحدث ان شاهدناه يوما يرتاح او يتلكأ او يدخن او يمد حديثاً مع أحد .

وتساءلت أخيراً : بماذا وعد هذا الرجل نفسه ، بعد هذا الكدح المستمر ؟ ربما بزواج قريب او برحلة ممتعة او بتوفير مبلغ من المال لبناء بيت جميل . وطلبت من السائق أن يسأله فتوقف بالقرب منه وناداه : « يا ابن خالتي ، بماذا وعدت نفسك بعد هذا العمل المضني ؟ » فأجاب دون أن يتوقف عن العمل : « يا بقرق ، يا بفتق » .

* * *

فهرس

* * *